

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ
بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

أدب عباسي أول

رقم المقرر ٥٣٣٢٩٣

عدد الوحدات ٣

أستاذة المادة: بدرية المالكي

b.e.al-malki@hotmail.com

تصوير تاريخي للعصر العباسي الأول:

- بداية الدعوة العباسية، و تقسيمات العصر العباسي سياسيًا.
- نفوذ الأعاجم في البلاط العباسي.
- ثقافة العصر العباسي و روافدها.
- الحياة الاجتماعية في العصر العباسي و صورها في أدب العصر.
- الحياة الفكرية و الدينية في العصر العباسي.

- بداية الدعوة العباسية، و تقسيمات العصر العباسي سياسيًا:

ينتسب العباسيون إلى العباس عم النبي محمد صلى الله عليه و سلم، فهم هاشميون قرشيون و قد آثروا بعد موت النبي العربي الوقوف إلى جانب علي بن أبي طالب في طلبه للخلافة، و واصلوا الوقوف بعد موته إلى جانب العلويين في معارضتهم للأمويين، و لكن دون أن يبرزوا في تلك المعارضة أو يشتهروا، أو ينصهروا الانصهار الكامل في الحزب العلوي الهاشمي.

وقد كانت دعوتهم في بداية الأمر سرية. بمشاركة البيت العلوي ، وقد رفعوا شعار (الرضا عن آل البيت) ليستميلوا النفوس إليهم ، و كان أهل خراسان أكثر من ساند في هذه الثورة ، فبينما كان الخلاف يعصف بين أفراد البيت الأموي ليضعف من قوة خلافتهم و يثير الأحزاب ضدهم ، برز أبو مسلم الخراساني كقائد للدعوة العباسية و بدأ حربه ضد الأمويين في بلاد فارس و انتصر عليهم في أكثر من معركة، و طاردهم حتى دخل العراق حتى كانت الموقعة الفاصلة سنة ١٣٢هـ في الزاب ، فتمت الغلبة للعباسيين و انتهت بذلك خلافة بني أمية. يقول أبو مسلم الخراساني:

أدركت بالحزم والكتمان ما عجزت عنه ملوك بني مروان إذ حشدوا
ما زلت أسعى بجهدٍ في دمارهم والقوم في غفلة والناس قد رقدوا
حتى ضربتهم بالسيف فانتبهوا من نومةٍ لم ينمها قبلهم أحد
ومن رعى عنماً في أرض مسبعةٍ ونام عنها تولى رعيها الأسد

و بعد أن تمت الغلبة استأثر العباسيون بالحكم لأنفسهم ، وأقصوا البيت العلوي ، بحجة أنهم أكثر قرابة في نسبهم من الرسول الكريم ؛ لأن العباس بن عبدالمطلب هو عم الرسول بينما علي بن أبي طالب هو ابن عمه .

ثم التفت العباسيون إلى تشييد دولتهم ، فنقلوا مقر الخلافة من الشام إلى العراق، و ذلك لكثرة الجماعة المناصرة لهم في العراق فكانت بغداد فيما بعد حاضرة العباسيين و مقر حكمهم. و قد بدأ الحكم العباسي قوياً في بسط سيادته. و لم ينقطعوا في حكمهم عن هج الأمويين في توارث الخلافة. و برزت أسماء خلفاء كبار كأبي العباس السفاح و أبي جعفر المنصور و المهدي و هارون الرشيد و المأمون و المعتصم... و استعانوا بالأعاجم في بلاطهم فطُبعت كل فترة من فترات الخلافة العباسية بطابع خاص بحسب القوة المسيطرة فيه، فقد قوي الفرس في الفترة الأولى بدءاً بأبي مسلم الخراساني الذي حمل لواء الدعوة العباسية مناصراً لأبي العباس السفاح و مروراً بقوة البرامكة الفرس الذين انتهى نفوذهم على يد هارون الرشيد ، و تلاهم الأتراك في فترة حكم المتوكل و المعتصم ، ثم عاود الفرس الظهور مرة أخرى متمثلين في بني بويه الذين كان لهم نفوذ بارز أثناء البروز التركي مرة أخرى متمثلاً في السلاجقة...

وقد بلغ عدد الخلفاء في هذا العصر ٣٧ خليفة، تفاوتوا في قوتهم وضعفهم ، وعلى هذا الأساس قسم بعض الدارسين الدولة العباسية إلى قسمين : عصر عباسي أول يمثل عصر الخلفاء الأقوياء ، وعصر عباسي ثاني يمثل عصر الخلفاء الضعفاء.

كما قسم البعض الآخر هذا العصر إلى خمسة أدوار سياسية ، لامتداد حكم الدولة العباسية إلى خمسة قرون (١٣٢هـ-٦٥٦هـ) وهي كالتالي:

<p>كانت الخلافة قوية مهيمنة في هذا الدور، فقد حكم في هذه الفترة أشهر وأقوى خلفاء بني العباسي ابتداءً بأبي العباس السفاح و يليه أبو جعفر المنصور المؤسس الحقيقي للدولة العباسية، مروراً بالمهدي و هارون الرشيد. و المأمون و يمتد هذا الدور حتى أواخر حكم المتوكل، فيشغل هذا الدور قرناً من الزمان بلغت فيه الخلافة أقصى قوتها و أزهى مظاهرها. و كانت عاصمة الدولة في هذه الفترة (بغداد) .</p>	<p>الدور الأول: دور القوة المركزية. (١٣٢هـ-٢٤٧هـ)</p>
<p>كان الخليفة المعتصم قد نظم من فتيان الأتراك جنوداً يعتمد عليهم في حماية العرش، و لما مات المعتصم أصبح نفوذ أمراء الجند التُرك شديداً في الخلافة. و لم يكذب يقتل المتوكل سنة ٢٤٧هـ حتى أصبح الخليفة في قبضتهم يتصرفون به كما يشاءون. و امتد هذا الدور حتى سنة ٣٣٤هـ. و قد بقيت الخلافة في هذا الدور مُحافِظَةً على شيء من رونقها رغم استبداد الجند. و كان للخلافة وزارة و عُمال. و مما يُذكر في هذا الدور أن الخليفة المعتصم قد نقل ديوان الخلافة إلى مدينة سامراء عام ٢٢١هـ و هي المدينة التي بناها للتُرك. فبقي فيها ديوان الخلافة ٥٨ عاماً. ثم أُعيدَ إلى بغداد.</p>	<p>الدور الثاني: دور الجندية. (٢٤٧هـ-٣٣٤هـ)</p>
<p>في هذا الدور كانت السلطة الحقيقية في أيدي بني بويه و صارت الوزارة من جتهتهم و الأعمال إليهم، و أصبح الخليفة لا يملك من المال إلا راتباً يتقاضاه. و قد كان بنو بويه أهل سياسة و دهاء فقد أبقوا للخلافة نفوذها الاسمي و صاروا يحكمون في الدولة ظاهراً باسم الخلفاء. و ظلوا كذلك حتى ضعفوا و زال ملكهم على أيدي السلاجقة.</p>	<p>الدور الثالث: الدور البويهي (٣٣٤هـ - ٤٤٧هـ).</p>
<p>كانت السلطة في هذا الدور بأيدي السلاجقة، و هم دولة تركية قوية استولت على الأمر في بغداد و ضربت باسم سلاطينها النقود و خُطبَ لهم على المنابر. على أنهم كالبويهيين حافظوا على الخلافة العباسية و أظهروا التبجيل لها.</p>	<p>الدور الرابع: الدور السلجوقي (٤٤٧هـ-٥٩٠هـ)</p>
<p>انقرضت دولة السلاجقة من بغداد أيام الخليفة العباسي الناصر، و لكن الانحلال كان قد تمكن من جسم الدولة العباسية. و لما ذهب بنو سلجوق لم يبق للخلافة في بغداد إلا بعض أنحاء العراق. و ظلت الخلافة في هذا الضعف حتى جاء المغول إلى بغداد و نهبوها و قتلوا آخر خلفائها و محوا ما كان قائماً من معالمها عام ٦٥٦هـ</p>	<p>الدور الخامس: دور الاحتضار. (٥٩٠هـ-٦٥٦هـ)</p>

– نفوذ الأعاجم في البلاط العباسي:

١- الفرس:

بعد أن كان معظم العرب في جاهليتهم قبائل متفرقة ضاربة في الصحراء، و كانت حكوماتهم في العراق و الشام و سواهما خاضعة لإحدى الدول السائدة كدولة الفرس و دولة الروم. أصبحوا في عهد الراشدين دولة واحدة ذات سيادة عربية. و اتسعت فتوحهم في عهد بني أمية و كان الفرس في أحط دركاتهم أيام الأمويين. و بانتهاء الحكم الأموي لم تنته السيادة العربية، ففي العصر العباسي بلغت الخلافة أوج قوتها، فكانت بغداد عاصمة لدولة إسلامية مترامية الأطراف تضم تحت سلطانها عناصر غير عربية. و لكن هذه الدولة استعانت في بدايتها بالروح الفارسية التي تحلم بعظمة الفرس في ماضيهم قبل الإسلام مجسدة في أبي مسلم الخراساني الذي قاد الثورة للعباسيين. و عرف العباسيون ذلك للفرس فاتكلموا عليهم في الإدارة و الوزارة. و بذلك انتعش العصر الفارسي الذي كان مُهمشاً في حكم بني أمية. و تعاظم نفوذ الفرس و بدأ التنافس بينهم و بين العرب.

و بالرغم من أن العباسيين اتكلموا على الفرس إلا أنهم لم يستسلموا لهم، بل أبقوا للخلافة العربية جلالها و قوتها. يدل على ذلك أن أبا جعفر المنصور قتل أبا مسلم الخراساني حين خشي منه الطغيان. و أن هارون الرشيد أباد البرامكة حين عصوا أمره و تعاظم أمرهم. و كذلك فعل المأمون بآل سهل. و قد كانت سياسة العباسيين قائمة على حفظ التوازن بين المضرية و اليمنية و الخراسانية منعاً لاستبداد أيّا منهم بالدولة، و كانت جيوشهم مؤلفة من العرب و الفرس حتى جاء المعتصم فقطع عن هؤلاء المال و جعل جُنده من الأتراك فقط.

و بعد ضعف الحكم العباسي بانتهاء خلافة المتوكل استفحل النفوذ التركي الذي لم ينته إلا على أيدي الدولة البويهية الفارسية التي أعادت النفوذ الفارسي قوياً مهميناً، حتى أصبح الفرس هم الحكام الفعليين للدولة، فقد كانوا يعزلون الخليفة إذا لم يخضع لهم، و يتجلى ذلك واضحاً في عهد السيطرة البويهية. و قد أدى نفوذ الفرس السياسي و الثقافي إلى انتشار الثقافة الفارسية و العادات و التقاليد التي ورثوها عن حضارتهم السابقة. كما أدى ذلك إلى بروز حركة (الشعوبية)، وهي حركة تدعو إلى احتقار العرب و نشر مثالبهم، ليصلوا من خلال ذلك إلى الطعن في الإسلام و رجاله، فهي حركة عدائية ضد الإسلام و المسلمين.

٢- الأتراك:

أول من استخدم الأتراك في الجندية من الخلفاء أبو جعفر المنصور ولكنهم كانوا شردمة صغيرة لا شأن لها في الدولة وإنما كان الشأن الأكبر يومئذ للخراسانيين (الفرس) والعرب. ولما اشتد التنافس بين العرب والفرس في أيام الرشيد وذهبت سطوة العرب بذهاب دولة الأمين وتسلبت الفرس أنصار المأمون وأحواله واستبدوا في الدولة كانت الحضارة قد أضرت بالمسلمين وأذهبت منهم قوة التغلب والفتح، ففكر المعتصم أخو المأمون في ذلك قبل أن تفضي الخلافة إليه وكانت أمه تركية وفيه كثير من طبائع الأتراك مع الميل إليهم لأنهم أحواله كما كان يميل المأمون إلى الفرس. كما أنه شاهد جرأة الفرس و قوتهم فخافهم على نفسه ، فرأى أن يتقوى بالأتراك و قد كانوا أهل بطش مع الجرأة على الحرب والصبر على شظف العيش، فجعل يتخير منهم الأشداء. و لما تولى الخلافة استعان بالأتراك وتكاثروا في خلافته حتى ضاقت بغداد بهم، فالتمس لهم معسكراً في مدينة سامراء التي أعجبه مقرها وسماها (سر من رأى) و جعل منها عاصمةً لدولته و بقيت سامراء قاعدة للدولة العباسية من سنة ٢٢١هـ إلى أيام المعتمد الذي عاد إلى بغداد سنة ٢٧٩هـ.

و بنقل المعتصم لمقر الخلافة إلى معسكر التُّرك اشتدَّ ساعدهم وقويت شوكتهم خصوصاً بعد أن أنفذوا المملكة من بابك الخرمي وفتحوا عمورية ونصروا الإسلام فتحوّل النفوذ إليهم، و ابتداءً استبدادهم في بلاط الخلفاء في أيام المتوكل لأنه لما تولى الخلافة سنة ٢٣٢هـ زاد في تقديم الأتراك ورعايتهم فزاد طمعهم في الدولة، ثم أغراهم ابنه المنتصر (أو هم أغروه) على قتله فقتلوه وكان ذلك أول جرأتهم على الخلفاء، وولوا المنتصر بعده و لم تطل مدة حكمه أكثر من بضعة أشهر فمات وضميره يوحزه، وتولى بعده المستعين بالله. ثم المعتز بالله، وقد استفحل أمر الأتراك استفحالاً عظيماً. فقتلوا المعتز هذا شر قتلة، كما حبسوا المستكفي و سملوا عينيه حتى مات في الحبس. وزاد بطشهم فبعد أن كان القواد يحلفون للخليفة بالطاعة صار الخليفة يحلف لهم. و لما تقدم الأتراك في الدولة العباسية وعلم إخوانهم في بلادهم بذلك تقاطروا مئاتٍ وألوفاً يطلبون الارتزاق بالجندية و رغبوا في الإسلام وجعلوا يدخلون فيه بالآلوف وعشرات الألوف. فكانوا يحملون إلى بغداد أو غيرها من المدائن الإسلامية تبعاً وقلما يتوالدون فيها ولذلك كانوا يتفاهمون بالتركية وقد يتعلمون العربية ولا يتكلمونها تكبراً.

- روافد الثقافة في العصر العباسي :

ليسَ للحركة الفكرية في أمة من الأمم منبثق خاص تتدفق منه كل يناييعها فهناك الكثير من الروافد التي تصب في مجرى ثقافتها، والثقافة العربية في العصر العباسي تأثرت بكثير من الثقافات المختلفة ليصبح الاتصال الخصب بينها سببا في ازدهار الحركتين العلمية والأدبية في هذا العصر ، وقد تم هذا الاتصال عن طريقين هما :

- المشافهة مع المستعربين . - الترجمة .

١ - المشافهة مع المستعربين :

المشافهة مع المستعربين طريق كان له أثر في الثقافة العربية ، فقد استخدم العرب تعبيرات مبسطة في تعاملهم مع الموالي حتى يُفهم عنهم ما يلفظونه بسهولة ، وكانوا يستعبرون منهم بعض الكلمات الأعجمية وخاصة في الأطعمة وأدوات الحضارة وكانوا يعربونها وقد يبقونها على صورتها الأصلية .

٢ - الترجمة :

أما الترجمة فحظيت بمكانة عظيمة في هذا العصر وهي على مرحلتين:

-المرحلة الأولى : تبدأ من خلافة المنصور إلى آخر خلافة هارون الرشيد ، وقد لقيت الترجمة في هذه المرحلة تشجيعا من الخلفاء ، وركزت على الكتب العلمية في الطب والفلك والهندسة ، و من أشهر النقلة في هذه المرحلة : يوحنا البطريق ، ومحمد إبراهيم الفزاري ، وعبدالله بن المقفع .

- المرحلة الثانية : تبدأ من عهد المأمون إلى نهاية القرن الثالث الهجري ، وقد تجاوزت الترجمة العلوم العلمية إلى العلوم الطبيعية والفلسفية ، وبلغت حركة الترجمة ذروتها في عصر المأمون الذي سمي عصره بالعصر الذهبي ، فقد حول دار الحكمة إلى ما يشبه المعهد العلمي الكبير ، وشجع العلماء والمترجمين ، فأعطى المترجم وزن الكتاب ذهبا ، كما أرسل البعوث إلى الهند والفرس والروم لجلب أنفس ما في خزائنها من كتب لترجمتها إلى العربية . ومن أشهر نقلة هذه المرحلة : حنين بن اسحق وابنه اسحق بن حنين وثابت بن قرة وابنه سنان بن ثابت .

وبهذه الطرق اتصلت الثقافة العربية بالثقافات الأخرى التي عدت روافدا لها ، وهي :

١ - الثقافة اليونانية :

التي بدأ اتصالها بالعربية منذ العصر الأموي. فقد شجع الأمويون حركة الترجمة من اليونانية إلى العربية وأول كتاب طبي ترجم إليها كان في خلافة مروان بن الحكم. ولكن حركة الترجمة لم تتسع في العصر الأموي اتساعها في العصر العباسي. ففي العصر العباسي نمت حركة الترجمة نمواً سريعاً. ولقد كانت اللغة السريانية هي الوسيط الفعال ما بين الثقافتين اليونانية والعربية . فقد عمل (السريان) كقناة للعلوم والمعارف من اليونانية إلى العربية . وقد عني الخلفاء العباسيون منذ فاتحة عصرهم بهذا النقل عناية شديدة، فأنفقوا عليه من المال العام مبالغ كثيرة، يتقدمهم في ذلك أبو جعفر المنصور. و يبرز منهم الخليفة المأمون. وقد أسهم المترجمون إسهاماً عظيماً في مجال التطور الفكري والتقدم العلمي الذي تميّز به العصر العباسي في القرنين الثالث والرابع للهجرة. ولم تقف النهضة عند حد النقل من لغة إلى لغة، بل أخذ العلماء الناطقين بالعربية في شرح هذه المنقولات و تلخيصها و تصنيف الكتب في موضوعاتها. و مع أن أكثر الناقلين عن اليونانية و السريانية كانوا من السريان و أكثر المصنفين كانوا ينتمون إلى غير العرب إلا أن اللسان العربي كان الأداة التي استعملت في النقل و التصنيف. فأصبحت العربية لغة العلم و الثقافة.

و ظهر الأثر اليوناني في الثقافة العربية قويا في العلوم العقلية والفلسفة أما الأدب فكان تأثيرهم فيه محدود لا يزيد عن نقل بعض الكلمات. أما المتأثرين بالفكر اليوناني من أبناء العربية فكانوا فريقين : فريق اعتمد فلسفة اليونان، فشرحوا أقوالهم و انصرفوا إلى دراسة نظرياتهم و استكشاف أسرار الفلسفة اليونانية. و من هؤلاء الفارابي و ابن سينا و ابن رشد... و فريق آخر اعتمد نظرياتهم و أساليبهم في النضال الروحي و الكلامي و هم المتكلمون مثل (المعتزلة، الأشاعرة..)

٢ - الثقافة الفارسي:

التي تعود فيها جذور التواصل العربي الفارسي إلى العصر الجاهلي فقد كانت مملكة الحيرة في الجاهلية مركز النفوذ الفارسي بين عرب الجزيرة، و لم تنقطع هذه الصلة بظهور الإسلام ، و قد حصل الأدباء ذوي الأصول الفارسية في العصر الأموي على مناصب مهمة كجبله ابن سالم الذي كان كاتباً لذي هشام بن عبد الملك و عبد الحميد الكاتب الذي أصبح كاتباً عند مروان بن الحكم، و قد تجلي

التأثير الفارسي بصورة واضحة في العهد العباسي لنفوذ الفرس في كافة المراكز السياسية والإدارية و الاجتماعية والعسكرية، و تقلدهم مناصب عليا كالوزارة و الكتابة، و اشتغالهم بالعلم و الأدب، بالإضافة إلى نشاط حركة الترجمة و التعريب.

فكان أثرهم واضحا على العلوم المختلفة كالحساب و الفلك و الطب ، و على التنظيمات الإدارية و التقاليد السياسية ، أما الأدب فقد كان لهم تأثير عميق في النثر ، بينما كان تأثيرهم على الشعر سطحيا يتمثل في بعض الكلمات الفارسية .

و قد ذكر ابن النديم في الفهرست ما يزيد على أربعين كتابًا يرجع أكثرها إلى أصل فارسي، كما ذكر أسماء الذين نقلوا من الفارسية إلى العربية، كابن المقفع و آل نوبخت... و سواهم.

٣ - المصدر الهندي:

كانت مدرسة جنديسابور قبل الإسلام مركزاً علمياً التقت فيه الحضارة اليونانية بالحضارة الهندية، و منها حُمل الشيء الكثير للعرب. و لكن احتكاك العرب بالهنود لم يبلغ كماله إلا بعد الفتح الإسلامي الذي ما إن وصل إلى الهند حتى امتدت علاقات الدين و العلم و التجارة. فقد كان الفتح الإسلامي باباً لتسرب المبادئ الفلسفية الهندية إلى نفوس العرب، و في الفهرست لابن النديم نجد كتباً هندية عديدة في الطب و الخرافات و الأسمار و الأحاديث تم نقلها إلى العربية.

و خلاصة ما سبق أن مجرى الفكر العربي له روافد ثلاثة كبرى. اليونان و هو الرافد الأهم ثم الفرس و الهند. غير أن هذا الترتيب يختلف في الأدب فالفرس تتقدم على اليونان في التأثير عليه .

الحياة الفكرية و الدينية في العصر العباسي:

كانت بغداد مركز الحضارة الإسلامية اعتباراً من بدايات القرن الثاني الهجري، فالخلفاء العباسيين اعتنوا بالناحية الفكرية إلى جانب اعتنائهم بالدفاع عن حدود الخلافة العباسية، ونتيجة لهذا الاعتناء فقد وجد في نهاية النصف الأول من القرن (٧هـ) تراثاً فكرياً لا تكاد حضارة من الحضارات أن تضاهيه، غير أن هذا التراث الفكري قد تعرض إلى هجمة بربرية على يد المغول كادت أن تقضي عليه لولا ما وجد من علماء قد اعتنوا به وأعادوا صياغته وتوثيقه في الأمصار الأخرى في مصر وبلاد الشام والحجاز. وما تركه العصر العباسي من تراث حضاري لا يتمثل فقط في العمائر التي بنيت في العواصم الإسلامية، في كل الأمصار، والتي مازالت آثارها باقية حتى اليوم، بل تتمثل أيضاً فيما خلفه علماء وأدباء تلك الحقبة من مؤلفات مازالت إلى اليوم تعد من أهم مصادر البحوث والدراسات الإسلامية في شتى ألوان الفكر والثقافة. و **لمعرفة أبرز المقومات التي أسهمت في مسيرة الحياة الفكرية بكافة فروعها في هذا العصر.** لابد من التركيز بداية على الوسيلة التي كان يتم من خلالها التعبير عن هذا الفكر الحضاري، و هي اللغة العربية التي كانت العامل الرئيسي في تقدم فكرنا الحضاري والتراثي، وعلى الرغم مما أصاب الحضارة الإسلامية من كوارث عسكرية، فإن اللغة بقيت العامل الأساسي مع الدين. فقد ظلّا معاً يجمعان المسلمين في آمهم وآمالهم، وهذا ما أكدت عليه الدراسات المعاصرة من أن اللغة تكون روح الأمة وحياتها، فاللغة هي: الثقافة، والحضارة، والأفكار، والآمال مجسدة بذاتها وهكذا يعيشها العرب والمسلمون، وقد حظيت اللغة العربية وآدابها بمرتبة خاصة في العصر العباسي، حيث كان من بر الخلفاء بالعربية أن رفعوا من شأن ديوان الإنشاء، وحافظوا على العربية يجعلها اللغة الرسمية. فاللغة العربية بمرونتها واتساع مدلولاتها، وكثرة مصطلحاتها، ودقة ألفاظها التي استوعبت مفردات العلوم والمعرفة.

يُضاف إلى هذه الوسيلة جهود صانعي هذا الفكر الإنساني العظيم و هم العلماء؛ فالدارس للعصر العباسي يقف أمام كم هائل من النتاج الفكري في شتى علوم المعرفة، وهذا يدل وبشكل واضح أن تلك الحقبة شهدت ازدهاراً علمياً واضحاً من خلال جهود العلماء في هذا العصر.

والدين الإسلامي أفرد مكانة للعلم والمتعلم، وأعطى العالم منزلة لا تضاهيها منزلة إلا الأنبياء الذين ورثوا علمهم للعلماء. وقد فجر الإسلام العقل البشري فانبرى للدرس والبحث في العلوم، وكان أول أبواب العلم التي انفتحت أمام العلماء هو باب العلم الديني: وقد ظلّ الدين أساس كل الحركات العلمية إلى أواخر العهد الأموي واستمرّ في العصر العباسي فنشأ علم التفسير وعلم الحديث وعلم الفقه والشريعة ولزم ذلك نشوء علم اللغة والنحو لتفسير الكلمات في الآيات القرآنية وإيضاحها وضبطها.

وانشغل العلماء في العصر الأموي وأوائل العصر العباسي بتلك العلوم التي يشكل جوهرها الأساسي القرآن الكريم والسنة النبوية فعملوا على جمع ما تفرق من الحديث وتفسير الآيات القرآنية واستنباط الأحكام من القرآن والسنة والحديث وتطبيق ما ورد منهما على الحوادث الجزئية. ولم تكن تلك العلوم الدينية مستقلة عن بعضها البعض في العصر الراشدي والأموي، فليس هناك علم مستقل اسمه التفسير ولا علم مستقل اسمه الفقه.

ولما جاء العصر العباسي ظلت هذه النواة: القرآن وعلم الحديث هي أساس العلوم الدينية، ووجدت بجانبها نواة أخرى تجمعت حولها العلوم الدنيوية هي نواة علم الطب وقد كان علم الطب قد تأسس مع تأسيس مدرسة جنديسابور التي كانت وارثة الطب اليوناني والفلسفة اليونانية في الشرق، فتكونت حول هذه الدراسة الطبية دراسة الطبيعة والكيمياء فضلاً عن المنطق والفلسفة إذ كانت الثقافة الطبية في ذلك الزمن تطلب كل هذه الفروع، وانتقل ذلك إلى فلاسفة المسلمين أمثال: الفارابي وابن سينا فكلاهما طبيبٌ وفيلسوفٌ.

لذلك نجد نوعين من الدراسة في العصر العباسي الأول الموافق للقرن الثاني الهجري:

١— دراسة دينية تدور حول القرآن والسنة

٢— دراسة دنيوية تدور حول الطب وعلومه.

ولكل نوعٍ منهجٌ في البحث خاص به، وإن أثر كلٍ منهما في الآخر.

فمنهج البحث والتأليف في العلوم الدينية:

هو المنهج النقلي الذي قام على الرواية وصحة السند ويتضمن:

أ— علم التفسير: الذي اعتمد على نقل ما روي من تفسير الآيات الواردة في القرآن الكريم منقولاً عن الصحابة والتابعين.

ب— علم الحديث: الذي قام على جمع الأحاديث وامتحان أسانيدها لمعرفة جديدها من رديئها.

ج— علوم اللغة والأدب: التي تأثرت بمنهج العلوم الدينية أي المنهج النقلي ونمط الرواية فيها، كنمط الرواية في الحديث، فاللغوي كان يروي ما سمع من العرب أو ما سمع من علماء شافهوا العرب، والأديب يروي ما سمع من إعرابي أو عالم، ويذكرون السند كما يذكره المحدث مثل ما ورد في كتاب الأغاني لأبي الفرج الأصفهاني.

أما منهج البحث والتأليف في العلوم العقلية:

فيعتمد على معقولية الحقائق وامتحانها إما عن طريق المنطق العقلي والبرهان: كالمنطق والفلسفة والرياضيات، أو عن طريق التجربة أي تجربة الحقائق وامتحانها عملياً: كعلوم الطبيعة والطب والفلك. فالعلوم العقلية تنتهج المنهج العقلاني وتستعمل البرهان العقلي والمنطق أو التجربة في التمييز بين الخطأ والصواب.

وكان لكل منهج أثر كبير في أصحابه من حيث البحث والتدقيق ، فأنصار المذهب النقلي قصروا اتجاههم على التحقق من صحة النقل ولم يحكموا مقياس العقل ، أما أصحاب المنهج العقلي فقد أطلقوا لعقلهم العنان وحاولوا تطبيق منهجهم على علم الكلام وعلم الفقه وعلم النحو واللغة ، فحصل صدام عنيف بين المدرستين سبب التراع والجدل لكن في نفس الوقت وسّع مجال العلم وأوصله إلى مجالات جديدة. و كان من نتائج هذا الانفتاح الفكري الثقافي و الجدل العلمي و الاختلاط بالعناصر الأخرى ظهور حركات فكرية جديدة أهمها: (المعتزلة، الأشعرية). و كانا نتيجة لخلط الدين بالفلسفة فقد مثلاً ثمرة علم الكلام في ذلك العصر. بالإضافة إلى (الزندقة، و الشعوبية).

وفي أقل من نصف قرن من الزمن وفي صدر ومنتصف الدولة العباسية كانت أغلب العلوم قد دونت ونظمت سواء في العلوم النقلية من علوم القرآن والحديث والفقه وأصوله وعلوم اللغة والأدب أو في العلوم العقلية من علوم الرياضة والمنطق والفلسفة وعلم الكلام ، وبلغ نشاط العلماء المسلمين في ذلك العصر أوجه ، فكان كل فريق يغزو في مجاهل اختصاص علمه ويخرج بجديد ، وكان هذا النشاط موازياً لنشاط الفتوحات للبلدان مما جعل الثقافة العربية الإسلامية سمة ذاك العصر .

– الحياة الاجتماعية في العصر العباسي.

بلغ التطور الاجتماعي ذروته في العصر العباسي و يظهر ذلك فيما يلي:

١/ الامتزاج مع الأمم الأخرى:

و أساس هذا الامتزاج هو انتشار العرب في الأمصار بعد الفتح، و اختلاطهم بالعناصر الأخرى عن طريق الزواج، و تعرّب الأمم المغلوبة. فقد خرج العرب من جزيرتهم فاتحين فامتزجوا بغيرهم من الأمم و كان لهذا الامتزاج مظاهره اللغوية المتمثلة في اقتباس ألفاظ من اليونانية و الفارسية خصوصاً فيما يخص المآكل و المشارب و الملابس و نحوها... و بعض الألفاظ العلمية. و لم يقف الامتزاج عند هذا الحدّ بل امتدّ لما هو أعمق، فقد اختلط الجنس العربي بسواه عن طريق الزواج، اختلط أولاً بالأمم التي اعتنقت الإسلام كالفرس و الترك و الروم و البربر و سواهم، ثمّ بالأمم الأخرى عن طريق السبايا و الجوارى.. حتى أنّ كثيراً من خلفاء بني العباس كانوا أبناءً لإماء. كالمنصور و إبراهيم المهدي و المأمون و المستعين...

٢/ التطور الحضاري و مظاهر الترف:

بلغت رقعة الدولة العباسية حدّاً عظيماً من الاتساع. فتعددت فيها مصادر الجباية، و كان الخراج يأتيها من بلاد عديدة كلها تقع تحت الحكم العباسي، فكان لذلك عظيم الأثر في انتعاش الحياة الاقتصادية، و كان جل هذه الأموال يُنفق في بغداد فليس من الغرابة أن نقرأ كثيراً في كتب التاريخ عن كثرة البذخ و السخاء في دوائر الخلفاء و الأمراء. فعلى سبيل المثال اشتهر الخليفان الموفق و المكتفي بكثرة ما جمعا من أثواب حتى كان للموفق ستة آلاف ثوب من جنس واحد. و كان للمكتفي ما يبلغ عشرات الألوف، و يذكر المؤرخون أنه كان لأم الخليفة المستعين بساط فيه نقوش على أشكال حيوانات أجسامها من الذهب و عيونها من الجواهر. و قدروا قيمته بنحو ١٣٠ ألف دينار. و ذكر ابن خلكان أن أم جعفر في أيام عزها كانت تمشي و خلفها أربع مائة وصيفة. و قد يكون فيما يذكره المؤرخون بعض المبالغة إلا أن كثرة هذه الروايات و الأخبار تدل على أن الترف و البذخ كان مظهرًا شائعًا لدى الخلفاء، و لذلك فمن غير المستغرب أن يدفع الخلفاء للشعراء و المغنين ألوفاً مضاعفة.

وقد حفلت قصور الخلفاء بمجالس الطرب، يرتادها الشعراء و يتبارون بوصف ما يجري فيها من لهو و عبث، فينالون بما تجود به قرائحهم و تنطلق به لهواتهم، الجوائز على أقدارهم. و قد دونت أخبار تلك المجالس وما كان يجري فيها من إسراف باللهو و المجون في دواوين الشعراء و كتب الأدب و الأخبار.

وتروي لنا أخبار العصر العباسي الأول مشاهد اللهو والعبث في مجالس الخلفاء، وما كان يدور فيها من الشراب، يعبون منه حتى تميل الكئوس بالرءوس. وأصبح الإفصاح عن الخمرة أمراً شائعاً لا حرج فيه فهذا أبو نواس يقول :

ألا فاستقي حمرا وقل لي هي الخمر ولا تسقني سرا إذا أمكن الجهر

و من صور الحياة الاجتماعية التي عكسها الأدب العباسي مايلي:

١/ كثرة الجواري والغلمان، كنتيجة من نتائج الترف والمال و كان في بغداد كما كان في البصرة وغيرها من الحواضر الكبرى سوق لبيع الرقيق من عبيد وإماء. و لم تكن كثرة الرقيق و الجواري حصراً على قصور الخلفاء، بل تعدتها إلى منازل ذوي اليسار من تجار و نحوهم. و كانوا يتهادون الجواري، فقد أُهديَ إلى المتوكل نحو ٢٠٠ و صيف و وصيفة. بل كانت المرأة أحياناً تهدي زوجها كما فعلت زبيدة زوجة هارون الرشيد حين أهدته بعض الجواري. و قد اهتموا بتعليم الجواري و الغلمان و تثقيفهم فقد كان ذلك يزيد من أثمانهم. و يعكس الشعر العباسي بعض هذه المظاهر، ففي شعر أبي نواس على سبيل المثال نجد صورة عبث الشباب الماجن . و قد وصل الأمر إلى نوع من التهتك و الإنحطاط الأخلاقي فشاع نوع جديد من الغزل الماجن و هو الغزل بالمذكر (الغلمان).

و من النصوص الناطقة بهذا قول أبي نواس:

سَقَانِي أَبُو بَشْرٍ مِنَ الرَّاحِ شَرِبَةً لَهَا لَذَّةٌ مَا ذُقْتُهَا لِشَرَابٍ
وَمَا طَبَخُوهَا غَيْرَ أَنَّ غُلَامَهُمْ مَشَى فِي نَوَاحِي كَرَمِهَا بِشِهَابٍ.

٢/ مجالس الشرب و الغناء، و قد توفرت في الحواضر و لا سيما بين الخاصة و كما يتبين من الشعر العباسي فإن شرب الخمر بأنواعها كان شائعاً و كذلك مجالسة المغنين و المغنيات و قد أجمع أكثر المؤرخين على أن بعض الخلفاء كانوا يعاقرون الخمرة، ففي كتاب المستظرف للأبشيهي ورد بأن الواثق كان يرقد في المكان الذي يشرب فيه و يرقد معه ندماءؤه. و يعقد الراغب الأصفهاني في كتابه (محاضرات الأدباء و محاورات الشعراء و البلغاء) أبواباً في ما جاء من الشعر في الشرب و الشراب و الحث على شربها صباحاً أو مساءً، و الحث على مسابقة الزمان بشرب المدام و الإقبال على اللذات، و ماجاء من الشعر في وصف آلات الشرب كالأباريق و نحوها. يقول أبو نواس في الغناء و الشراب:

إنما العيش سماع و مدام و غلام
فإذا فاتك هذا فعلى العيش السلام.

٣/ نشوء حركة زهدية مضادة للترف الماجن في ذلك العصر. فإذا كانت حانات الكرخ في بغداد ودور النخاسة مكتظة بالجواري والإماء فمن ناحية أخرى كانت المساجد عامرة بالعباد والنسك وكان الوعظ في هذا العصر يلتحم بالقصص للعظة والعبارة وكان العباد يجيئون حياة زهد خالصة كلها تبتل و تقشف و إعراض عن الحياة الزائلة.

وقد شهد العصر العباسي الأول شهد لونين من الزهد:

- زهداً إسلامياً خالصاً أعدّ للنسك.
- زهداً مانويًا مارقاً وهو الذي يمكن أن يوصل بينه وبين البوذية

وقد مضت الدولة تقاومه وتقاوم أصحابه مقاومة عنيفة، وكان من تمام النسك المارق المنحرف أن يعيش الناسك من سؤال الناس.

ومن أهم شعراء الزهد الشاعر العباسي أبو العتاهية إذ يعد زعيم مدرسة شعرية جددت في موضوعات الشعر فقربته من حياة الناس و جددت في الأساليب فاخترت الكلام اللين الواضح القريب من لغة عامة الناس. و من شعره الزهدي قوله:

نَموتُ وَنُنسى غَيْرَ أَنَّ ذُنوبَنَا وَإِنْ نَحْنُ مِتْنَا لَا تَموتُ وَلَا تُنسى
أَلَا رَبُّ ذِي عَيْنَيْنِ لَا تَنْفَعَانِهِ وَهَلْ تَنْفَعُ الْعَيْنَانِ مَنْ قَلْبُهُ أَعْمَى

٤/ التألق في الفنون الحضرية و يدخل تحتها تشييد المنازل و نسج الثياب و المفروشات و بناء المراكب و صنع الآلات الموسيقية... و ما إلى ذلك من صور التحضر. و تنعكس صورة التحضر في الشعر العباسي الذي ينطق بوصف القصور و المساجد التي يبينها الخلفاء و الأمراء و كذلك وصف الولايم و نحوها. يقول الحسين بن الضحاك الباهلي يصف برجاً للمتوكل:

ما كان بالبرج مذ كانت أوائلنا ولا يكون بناءً مثله أبداً
كأنه فلكٌ تختالُ أنجمه إذا التهلُّلُ من تيجانه اطرّداً
يُضاحِكُ الدرّ في أكنافه فلقٌ من الزبرجدِ ما يُحصى له عددًا
عَفَى على عرش بلقيس بهجته وفات في الحُسنِ حتّى جاوزَ الأمدًا

حياة الشعر في العصر العباسي الأول:

أ - أسباب نهضة الشعر.

ب- مظاهر تطور الشعر.

١/ في الأغراض و الفنون

- المدح

- الهجاء

- الرثاء

- الغزل

- الوصف (الخمريات، الطرديات)

- الحكمة

- الزهد و التصوف

- النظم التعليمي.

٢/ في الأفكار و المعاني.

٣/ في الألفاظ و الأساليب.

٤/ في الأوزان و القوافي.

ج - اتجاهات الشعر في العصر العباسي .

أ - أسباب نهضة الشعر في العصر العباسي:

من خلال دراستنا لمظاهر الحياة الاجتماعية و الثقافية في العصر العباسي يُمكن إجمال عوامل نهضة الشعر في العصر العباسي في النقاط التالية:

١/ النهضة الثقافية و الفكرية، و تطور الحركة العلمية. فقد أسهم التطور الفكري و الثقافي في إمداد الشعراء بمعانٍ جديدة و تفتيح أذهانهم على صور و تشبيهات مُستقاة من الحوارات العلمية و الثقافية، فشعراء كل عصر يتأثرون ببيئتهم و يستقون منها معانيهم و أحييتهم، فكما كانت الصحراء مثار خيال الشاعر الجاهلي فكانت معانيه في أغلبها معانٍ حسية، أصبحت الحضارة و الثقافة و العلوم مثار خيال الشاعر العباسي. فشاعت في شعرهم المعاني العقلية.

٢/ التطور الحضاري الذي أسهم في نهضة فن الوصف، فقد شاع في هذا العصر وصف القصور و الموائد و المآكل و المشارب... كما أثر التطور الحضاري في لغة الشعر فاستخدموا الألفاظ الرقيقة. وابتعدوا عن الغريب و المهجور.

٣/ النهضة الاقتصادية و الحياة المترفة التي عاشها الخلفاء، فقد زادت عطايهم للشعراء و ازدهر بذلك فن المديح. كما نما نتيجة لهذا الترف شعر الغزل و المجون و نما كذلك شعر الزهد كاتجاه مضاد للمجون و التهلك.

٤/ الامتزاج مع الأمم الأخرى و امتداد علاقات التأثير و التأثر، و أسهم هذا في نمو اتجاهات شعرية جديدة تحاول التمرد على البناء التقليدي، كما أدى إلى ظهور المفردات الفارسية في الشعر العباسي نتيجة للامتزاج القوي فيما بين العنصرين العربي و الفارسي.

٥/ تطور الحركة النقدية في العصر العباسي، فصار الشعراء محاسبون على النواحي الجمالية و الهفوات الفنية من قبل النقاد. فلم يعد النقد فطرياً انطباعياً كما كان في العصر الجاهلي. فقد صار النقد منهجياً له أصوله و قواعده.

ب - مظاهر تطور الشعر في العصر العباسي الأول:

أولاً: في الأغراض و الفنون:

أغراض الشعر في العصر العباسي هي امتداد للأغراض الشعرية في العصور السابقة، و لكن هذا لا يعني عدم بروز موضوعات جديدة، فكل عصر يُضيف للعصر السابق عليه غالباً. و قد تطورت الموضوعات التقليدية في العصر العباسي كالمدح و الهجاء و الغزل و الرثاء... كما برزت موضوعات جديدة في هذا العصر.

- المدح:

المدح موضوع شعري معروف منذ العصر الجاهلي، و لكنه في العصر العباسي اشتق لنفسه مضامين جديدة إلى جانب مضامينه المعروفة سابقاً، فقد كان مدار النقد في الجاهلية و في العصر الإسلامي و الأموي الكرم و المروءة و الشجاعة... و في العصر العباسي لم يلتزم المدح دائماً بالدوران حول هذه المضامين. فقد برز الإلحاح في هذا العصر على المعاني الإسلامية خاصة في مدح الخلفاء و الوزراء على نحو لم يُعهد من قبل. فالخليفة في نظر الشعراء إمام المسلمين و حامي حمى الإسلام. يقول سلم الخاسر في مدح يحيى البرمكي:

بقاء الدين و الدنيا جميعاً إذا بقي الخليفة و الوزير

يَعَارُ عَلَى حِمَى الْإِسْلَامِ يَجِي إِذَا مَا ضَمِيعَ الْحَزْمِ الْغَيُورِ
 وَ قَدْ بَالِغَ الشُّعْرَاءِ فِي وَصْفِ مَكَانَةِ مَمْدُوحِيهِمُ الدِّينِيَّةِ، يَقُولُ أَبُو نُوَاسٍ فِي مَدْحِ هَارُونَ الرَّشِيدِ:
 لَقَدْ اتَّقَيْتَ اللَّهُ حَقَّ تُقَاتِهِ وَجَهَدْتَ نَفْسَكَ فَوْقَ جُهْدِ الْمُتَّقِي
 وَ أَخْفَتَ أَهْلَ الشِّرْكِ حَتَّى أَنَّهُ لَتَخَافُكَ النُّطْفَ الَّتِي لَمْ تُخْلَقِ
 كَمَا قَامَ الشُّعْرَاءُ بِتَصْوِيرِ الْأَحْدَاثِ وَ الْفِتَنِ وَ الْحُرُوبِ فِي قِصَائِدِ الْمَدْحِ، وَ بِذَلِكَ أَصْحَبَتْ قِصِيدَةَ الْمَدْحِ
 وَثِيْقَةً تَارِيخِيَّةً تُصَوِّرُ فِيهَا الْبَطُولَاتِ الْعَرَبِيَّةِ. وَ أْبْرَزَ مِثَالًا عَلَى هَذَا قِصِيدَةَ أَبِي تَمَّامٍ فِي فَتْحِ عَمُورِيَّةِ:
 السِّيفُ أَصْدَقُ إِنْبَاءٍ مِنَ الْكُتُبِ فِي حَدِّهِ الْحَدُّ بَيْنَ الْجَدِّ وَ اللَّعْبِ
 وَ مِنْ نَوَاحِي التَّجْدِيدِ فِي هَذَا الْفَنِّ مَدْحُ الْمَدَنِ وَ التَّعَصُّبُ لَهَا وَ الْإِفَاضَةُ فِي تَعْدَادِ مَحَاسِنِهَا، وَ أَشْهَرُ الْمَدَنِ
 الَّتِي مُدِحَتِ الْكُوفَةُ وَ الْبَصْرَةُ وَ بَغْدَادُ بِاعْتِبَارِهَا الْمَرَكَزِ الرَّئِيسِيَّةِ لِلْحَيَاةِ الْفِكْرِيَّةِ وَ الْاجْتِمَاعِيَّةِ وَ
 الْاِقْتِصَادِيَّةِ. يَقُولُ عِمَارَةُ بْنُ عَقِيلٍ فِي مَدْحِ بَغْدَادِ:

أَعَايِنْتَ فِي طَوْلٍ مِنَ الْأَرْضِ أَوْ عَرَضٍ كِبَغْدَادٍ دَارًا إِنَّمَا جَنَّةُ الْأَرْضِ
 صَفَا الْعَيْشِ فِي بَغْدَادٍ وَ اخْضُرَّ عَوْدُهُ وَ عَيْشٌ سِوَاهَا غَيْرُ صَافٍ وَ لَا غَضٍ
 تَطُولُ بِهَا الْأَعْمَارُ إِنْ غَدَاها مَرِيءٌ وَ بَعْضُ الْأَرْضِ أَمْرٌ مِنْ بَعْضِ

— الهجاء:

انقسم الهجاء في العصر العباسي إلى قسمين: هجاء سياسي وهجاء شخصي، وقد امتاز اللونان معاً
 بالسخرية الشديدة والإيذاء المؤلم.

و مِنَ الْهَجَاءِ الشَّخْصِيِّ قَوْلُ ابْنِ الرَّومِيِّ فِي هَجَاءِ بَخِيلِ اسْمِهِ عَيْسَى:

يُقْتَرُّ عَيْسَى عَلَى نَفْسِهِ وَ لَيْسَ بِيَاقٍ وَ لَا خَالِدٍ

فَلَوْ اسْتَطَاعَ لِتَقْتِيرِهِ تَنْفَسَ مِنْ مِئْخَرٍ وَاحِدٍ

وَ مِنْ الْهَجَاءِ السِّيَاسِيِّ قَوْلُ دَعْبَلِ الْخُزَاعِيِّ فِي هَجَاءِ الْمُعْتَصِمِ وَ الْوَاتِقِ:

خَلِيفَةٌ مَاتَ لَمْ يَحْزَنْ لَهُ أَحَدٌ وَ آخِرٌ قَامَ لَمْ يَفْرَحْ بِهِ أَحَدٌ

فَمَرَّ هَذَا وَ مَرَّ الشُّؤْمُ يَتَّبِعُهُ وَ قَامَ هَذَا فَقَامَ الشُّؤْمُ وَ النَّكَدُ

وَ هَكَذَا فَقَدْ اتَّجَهَ الْهَجَاءُ الشَّخْصِيُّ نَحْوَ السَّخْرِيَّةِ وَ رَسَمَ الصُّورَ الْمَهْزِلِيَّةَ الْمُضْحِكَةَ. أَمَّا الْهَجَاءُ السِّيَاسِيُّ
 فَقَدْ اتَّجَهَ نَحْوَ التَّرْكِيزِ عَلَى الْإِنْخِرَافِ الدِّينِيِّ وَ نَسَبِ الشُّذُوزِ وَ الزَّنْدَقَةِ لِلْمَهْجُورِينَ.

وَ كَمَا ظَهَرَ مَدْحُ الْمَدَنِ فِي الشُّعْرِ الْعَبَّاسِيِّ ظَهَرَ كَذَلِكَ هَجَاءُ الْمَدَنِ، وَ مِنْ ذَلِكَ قَوْلُ الشَّاعِرِ:

إِنَّمَا الْبَصْرَةُ أَشْجَا رٌ وَ نَخْلٌ وَ سَمَادٌ

لَيْسَ فِي الْبَصْرَةِ حَرٌّ لَا وَ لَا فِيهَا جَوَادٌ.

— الرثاء:

أَثَرَتِ الْحَضَارَةُ فِي شُعْرِ الرَّثَاءِ فَبَعْدَ أَنْ كَانَ الشُّعْرَاءُ الْعَرَبُ يَنْظُمُونَ فِي الْبُحُورِ الطَّوِيلَةِ صَارَ شُّعْرَاءُ
 الْعَصْرِ الْعَبَّاسِيِّ يَنْظُمُونَ فِي الْبُحُورِ الْخَفِيفَةِ. وَ رَثَى الشُّعْرَاءُ الْخُلَفَاءَ، وَ كَانَ أَوَّلَ خَلِيفَةَ بَكَاهُ الشُّعْرَاءُ فِي
 هَذَا الْعَصْرِ أَبُو الْعَبَّاسِ السَّفَّاحُ، وَ قَدْ كَانَ رِثَاءَهُ أَبُو دَلَامَةَ يَقُولُهُ:

ويلي عليك وويل أهلي كلهم .. ويلاً وهولاً في الحياة طويلاً
 وقال أبو نواس في الخليفة محمد الأمين :
 طوى الموت ما بيني وبين محمد .. وليس لما تطوى المنية ناشر
 وكنت عليه أحذر الموت وحده ... فلم يبق لي شيء عليه أحاذر
 لئن عمّرت دوراً بمن لا أودّه ... فقد عمّرت ممن أحبّ المقابر
 كما بكى شعراء هذا العصر أبنائهم، و من ذلك مرثية ابن الرومي في ابنه محمد، و أولها:
 بكاؤ كما يُشفي وإن كان لا يُجدي فوجودا فقد أودى نظير كما عندي
 بُني الذي أهده كفاي للثرى فيا عزّة المهديّ يا حسرة المهدي
 ألا قاتل الله المنايا ورميها من القوم حبات القلوب على عمد
 توخى حَمَام الموت أوسط صبيتي فلله كيف اختار واسطة العقد
 كما قالوا الشعر في رثاء الزوجات، و من جيد هذا الشعر قول محمد الزيات في زوجته التي ماتت
 وتركت ولداً صغيراً :

ألا من رأى الطفل المفارق أمه بعيد الكرى عيناه تبتدران
 رأى كل أم وابنها غير أمه يبيتان تحت الليل ينتحبان
 وبات وحيداً في الفراش تجنّه بلابل قلبٍ دائم الخفقان
 فلا تلحياني إن بكيت فإنما أداوي بهذا الدمع ما تريان
 و من جديد الرثاء في العصر العباسي رثاء المغنين و بذلك تضمن الرثاء أوصافاً لم يعرفها الرثاء العربي. و
 من ذلك قول أحدهم في رثاء المغني إبراهيم الموصلي:

بكت المسمعات حزناً عليه وبكاه الهوى وصفو الشراب
 وبكت آلة المجالس حتى رحم العود دمعة المضرب
 و من ضروب التجديد في الرثاء العباسي رثاء المدن ، و من ذلك قول الشاعر في المحنة التي أصابت بغداد
 إثر الصراع الناشب فيما بين الأمين و المأمون، و من ذلك قول الشاعر:

يا بؤس بغداد دار مملكة دارت على أهلها دوائرها
 أمهلها الله ثم عاقبها لما أحاطت بها كبائرها
 و يُضاف إلى ما سبق رثاء الشعراء لأشياء جديدة كالأشياء الشخصية، كأن يرثي أحدهم قميصه أو
 حيواناً فقدته. يقول ابن العلاف في رثاء هرّه:

ياهرّ فارقتنا ولم تعدٍ وكنت منا بمترل الولد
 وكيف ننفك عن هواك وقد كنت لنا عدة من العدد

– الغزل:

فن الغزل من الفنون المعروفة منذ العصر الجاهلي، وقد تميز من بداياته بسيره في اتجاهين أساسيين: (غزل حسي عابث، و غزل عفيف). وقد أدت طبيعة الحياة في العصر العباسي إلى ازدهار فن الغزل، فبرزت أنواع من الغزل في هذا العصر، كالغزل القصصي وهو امتداد لما كان معروفاً في العصور السابقة، والغزل الحسي ولكنه صار أكثر مجوناً وتعابثاً. وللزندقة والشعبوية دور كبير في شيوع هذا الغزل، بالإضافة إلى تطور الحياة الحضارية و تعدد الملاحية، وذيوع المذاهب والآراء الإباحية التي نشرها الموالي . يقول حماد متغزلاً:

إني لأهوى جوهرًا ويحسب قلبي قلبها

وأحب من حبي لها من ودّها وأحبها

وأحب جارياً لها تخفي وتكتم ذنبها

أمّا اللون الجديد الذي ظهر في الشعر العباسي فهو الغزل بالغلمان أو الغزل بالمدكر. و أبو نواس يُغالط مغالطةً فادحة لتبرير مجونه و ميله الشاذ قائلاً:

بذا أوصى كتاب الله فينا بتفضيل البنين على البنات.

– الوصف:

الشعراء وصّافون بطبعهم بسبب اتساع خيالهم و دقة ملاحظتهم ، و الشعر العربي زاخر بالوصف المتنوع المأخوذ من البيئة، ابتداء من عصر ما قبل الإسلام، و في العصر العباسي و نظراً للتطور الحضاري و النمو الاقتصادي فقد اتسع مجال الوصف و تنامى، وظهر بذلك اتجاهين في الوصف:

الاتجاه القديم الذي امتدت له يد الحضارة بالتهذيب والتطوير .

و الاتجاه الحديث المبتكر الذي كان نتاج التطور الحضاري و النماء الاقتصادي و شيوع الترف و البذخ.

ففي الاتجاه القديم وصف الشعراء الرحلة في الصحراء و الناقة و الفرس و الليل و النجوم و وصفوا المعارك و الحروب ... و إلى جانب هذا وصفوا المظاهر الحضارية كالجسور و الموائد و القصور و المآكل و المشارب....

يقول أحدهم في وصف جسر نهر دجلة:

أيا حبذا جسراً على متن دجلة بإتقان تأسيس وحسن ورونق

جمال وفخر للعراق ونزهة وسلوة من أضناه فرط التشوق

كما وصفوا القصور وما فيها من فرش وأثاث وما يحيط بها من حدائق غناء تغني فيها الطيور

وتجري فيها الطباء والغزلان، و وصفوا الآلات الموسيقية و الألعاب و من ذلك وصف المأمون للعبة الشطرنج وتشبيهها بمعركة حربية حامية بين عسكريين. كما وصفوا رحلات الصيد والطرده، و وصفوا

الخمرة وأدواتها وسقائها، ومجالسها، وما يتردد فيها من أصوات المغنين والمغنيات. و بذلك تفرّع عن فن الوصف فنان جديدان هما (الطرديات، و الخمریات)

* الطردِيَّات:

الطردِيَّات هي القصائد التي يكون موضوعها الصيد، وهو فن نشأ في العصر الجاهلي و ترعرع و نما في العصر العباسي.

و يُعدّ أبو نواس أكبر شعراء الطرديات في الشعر العربي، وأكثرهم تمثيلاً لما بلغته هواية الصيد في العصر العباسي من رقي و تحضر، وأكثر طرديات أبي نواس تدور حول صيد الكلاب، وقد كان القدماء يصيدون على الفرس، ويقبحون في الغالب كلاب الصيد، و تصور الطرديات الكلب تصويراً قوياً، و تخلع عليه أجمل الأوصاف من شجاعة و خفة و براعة في الوثوب على الفريسة و اقتناصها. و أبو نواس حين يصور الكلب يبين لنا شدة عناية صاحبه به، فهو يبيت إلى جانبه، و إن تعرى كساه ببرده حتى لا يصيبه مكروه، و هو يصف الكلب بأنه واسع الشدقين، طويل الحد، واسع الجري حتى أن رجليه لا تمسان الأرض، ولهذا فصيده مضمون. يقول:

أنعتُ كلباً ليس بالمسبوق مُطهماً يجرى على العُروقِ

جاءتْ به الأملاك من سلوق كأنه في المقود الممشوقِ

ولأبي نواس نحو خمسين طردية تتميز جميعها بالجودة. و ممن اشتهر بالطرد، على بن الجهم و لابن الرومي كذلك الكثير من الطرديات.

* الخمريات:

فنٌ أدبيّ ليس بجديدٍ على العصر العباسي، وإنما هو قديم ابتداءً به قبل الإسلام، و ممن أبرزهم الأعشى في وصف الخمرة، و لما جاء الإسلام أمر بتحريمها و حدّ شاربيها، و لذا قلت معارقتها إلا من نفرٍ قليل، في العصر الاموي قرع كؤوسها عدداً من الشعراء،

في العصر العباسي - بترفه، و لهوه، و مجونه و انفتاحه - شاعت الخمرة، و توسعت مجالسها، و كثرت حاناتها، و زاد الإقبال عليها، و يبدو أن الحرية وراء هذا الإقبال، و قد شرّبها أكثر الخطباء، أول شاعر خصص الخمرة بشعره هو أبو الهندي غالب بن عبد القدوس، فقد كان يحب الخمرة و يبكي لفراقها، و يحن إليها حنين الفطيم إلى الرضاع، فهاهو يقول إن أبطأ عن شرّبها مدّة:

أديراً عليّ الكأسِ إني فقدتها كما فقد المنطوم درّ المراضع

و لقد استقى أبو نواس كثيراً من المعاني في وصف الخمرة من أبي الهندي، و تطور شعر الخمرة علي يديه، حتى عد زعيم شعراء الخمریات.

– الحكمة:

أثرت حركة الترجمة الواسعة في شعر الحكمة، فنجد أن شعراء بني العباس استوعبوا حكم اليونان و الفرس وحكم كليلة ودمنة الهندية التي ترجمت للفارسية ثم نقلها ابن المقفع إلى العربية فتمثلوا كل ذلك شعراً ، وضمنوا بعضه أبياتهم ، وما كادوا يقعون على كتابي الأدب الكبير والأدب الصغير اللذين نقل فيهما ابن المقفع تجارب الفرس وحكمهم ووصاياهم في الصداقة والمشورة وآداب السلوك حتى أخذوا يفردون المقطعات في تصويرها شعراً ، يقول بشار بن برد في إحدى مدائحه :

إذا بلغ الرأي المشورة فاستعن برأي نصيحٍ أو نصيحة حازمٍ

ولا تجعل الشورى عليك غضاضةً مكان الخوافي نافعاً للعوادم

ويقال : إنه كان في ديوان صالح بن عبد القدوس ألف مثل للعجم.

و لقد كانت حكمُ العصور الأدبية السابقة تبدو منشورة في قصيدة المديح أو الهجاء أو الرثاء أو حتى الغزل ، لتلخص تلك التجربة في حكمة أو اثنتين خلال القصيدة، فزهير بن أبي سلمى ضمن معلقته شذرات من تجربته تخدم غرض القصيدة. و تتميز شعر الحكمة العباسي بإفراد قصائد أو مقطوعات كاملة للحكمة ، ينتقل الشاعر فيها من عرش الشاعر العفوي إلى كرسي الناظم المعلم ، يجمع فيها كل ما وافق وزنه و ثمن معناه. من ذلك قصيدة (ذات الأمثال) لأبي العتاهية التي جمع فيها كثيراً من الأمثال البليغة ذكر صاحب الأغاني أنها تبلغ نحو أربعة آلاف مثل ومن الشعراء الذين أفردوا للحكمة قصائد كاملة صالح بن عبد القدوس :

المراء يجمع و الزمان يفرق	ويظل يرقع و الخطوب تمزق
ولأن يعادي عاقلاً خير له	من أن يكون له صديق أحمق
فارغب بنفسك أن تصادق أحمقا	إن الصديق علي الصديق مصدق
وزن الكلام إذا نطقت وإنما	بيدي عيوب ذوي العقول المنطق

– الزهد و التصوف:

الزهد ليس ظاهرةً جديدةً على العصر العباسي، إنما هو من عصر الصحابة، ثم العصر الأموي الذي برز فيه الكثير من القصاص والوعاظ الذين في أشعارهم بوادر للزهد وقطع الأسباب المتصلة بالقلوب . في العصر العباسي أصبح الشعر الذي ينظم فناً بذاته، يواجه تيار الزندقة و الإنحراف و المجون.

و الزهد اتجاه سلوكي يهدف للابتعاد عن الدنيا والالتزام بالعبادات، أما التصوف فهو نزعة تتخذ من المجاهدة والرياضة الروحية باباً للوصول إلى الباطن والوصول للكشف عن الله. ومن النساء المشهورات بالعبادة والصوم والاستغراق في الذات العلية رابعة العدوية وقد نادى بالحب الإلهي و من شعرها:

أحبك حين حب الهوى وحباً لأنك أهلاً لذاكا
فأما الذي هو حبّ الهوى فشغلي بذكرك عمّن سواكا
وأما الذي أنت أهل له فكشفك للحجب حتى أراكا

أمّا شعر الزهد الإسلامي المتضمن لتعاليم الدين دون غلو فيتجلى في شعر أبي العتاهية. ولأبي نواس الشاعر الماجن أبياتاً في الزهد تعد من روائع الزهديات، وقد اختلف النقاد حولها. فمنهم من رأى أنّ الشاعر تيقظ من غفلته و تاب إلى الله. و منهم من يرى أنه لم ينشدها إلا لينافس أبا العتاهية شاعر الزهد الأول. يقول أبو نواس:

يا رب إن عظمت ذنوبي كثرةً فلقد علمت بأن عفوك أعظمُ
أدعوك ربّ كما أمرتَ تضرعاً فإذا رددت يدي فمن ذا يرحمُ
إن كان لا يرجوك إلا مُحسنُ فممن يلوذ ويستجير المجرم
مالي إليك وسيلةً إلا الرجا وجميل ظني، ثمّ إني مسلمُ

– النظم التعليمي:

و هو فنٌ أدبي جديد اقتحمه الشعراء العباسيون، هدفه تسهيل حفظ العلوم، واستظهار المعارف، لاسيما بعد الإقبال على التعلم والرغبة الشديدة في طلب المعرفة، يفتقر في الغالب إلى العاطفة والخيال، ويخاطب العقل، ويتميز بطول النفس الشعري، وتنوع القافية.

أبرز فارس في هذا اللون من النظم هو إبان اللاحقي، وله مزدوجة طويلة شرح فيها أحكام الصوم والزكاة، أولها:

هذا كتاب الصوم وهو جامع لكل ما قامت به الشرائع
من ذلك المتزل في القرآن فضلاً على من كان ذا بيان
ومنه ماجاء عن النبي من عهد المتبع المرضي
وقد نظم في في علم الحيوان، وتاريخ الطب، وعلم الفلك، وغيرها.

ثانيا : في المعاني والأفكار :

نضجت العقول في هذا العصر فلم تعد تنقع بالمعاني السطحية ، وبالقول يُلقى دون حجة أو دليل ،

فاتسمت المعاني بالسلمات التالية :

١ -دقة الأفكار وجدة المعاني .

٢ -سعة الخيال .

٣ -الأدلة المنطقية .

٤ -المبالغة .

٥ -المحسنات المعنوية .

١ دقة الأفكار وجدة المعاني :

تفنن الشعراء في تعميق المعاني ، واخذوا في تفصيلها وترتيبها ، فغاصوا خلف الكلمة مهما عمقت ،

واستنبطوها مهما دقة . ومن ذلك قول ابن الرومي في الغزل :

وقع السهام ونزعهن أليم

ويلاه إن نظرت وإن هي أعرضت

وقول مسلم بن الوليد في الرثاء :

فطيب تراب القبر دل على القبر

أرادوا ليخفوا قبره عن عدوه

ومن أبداع ما قيل في تعميق المعاني قول أبو نواس في وصف الأقداح :

حبتّها بأنواع التصاوير فارس

تدار علينا الراح في عسجدية

مها تدريها بالقسي الفوارس

قرارتها كسرى وفي جنباتها

و للماء ما دارت عليه القلانس

فللخمر ما زرت عليه جيوبها

يقول الجاحظ: ما زال الشعراء يتناقلون المعاني قديما وحديثا إلا هذا المعنى، فإن أبا نواس انفراد بإبداعه.

شرح أبيات أبي نواس :

العسجدية: كأس مصنوعة من العسجد وهو الذهب. وقوله: قرارتها كسرى نصبه على الظرف، يريد أنه كان في قرارة الكأس- وهو أرضها- صورة كسرى. وفي جنباتها وهي نواحيها صورة المها وهو بقر الوحش، وصور فرسان بأيديهم قسي يرمون تلك المها. وهو معنى قوله تدريها بالقسي الفوارس. والدريئة: الشيء الذي يرمى ، يعني أنه صب الخمر في الكأس إلى أن بلغت صورة حلوق الفرسان وهو موضع الأزرار. ثم صبّ الماء مقدار رؤوس الصور، وهو الذي تحتازه القلانس.

٢-سعة الخيال :

من أبرز سمات العصر العباسي الإغراب في الخيال ، وذلك نابع من حرصهم على تفتيق المعاني والإتيان بالجديد المبتكر ، ولذا تجد في أدبهم التشبيه الدقيق والاستعارة البارعة ، والصور البديعة ، من ذلك قول بشار في وصف المعركة :

كأن مثار النقع فوق رؤوسنا وأسيفنا ليل تهاوى كواكبه

٣-الأدلة المنطقية :

كثر في شعر هذا العصر الإتيان بالأبيات القائمة على التحليل والتعليل والاستدلال بتأثير ثقافتهم الواسعة ، مثل قول أبي تمام في الحسد :

اصبر على كيد الحسو د فإن صبرك قاتله
فالنارُ تأكل بعضها إن لم تجد ما تأكله
وقوله :

لا تنكري عطل الكريم عن الغنى فالسيل حرب للمكان العالي

٤-المبالغة :

المبالغة في الشعر ليست بجديدة ، وإنما الجديد هو الغلو والتهويل وهذا معروف عن الفرس أي ولعهم بالمبالغة والغلو ، ومن هنا انتقلت الظاهرة إلى الشعر العربي ، ولم ينتقد الخلفاء هذه المبالغة . ولم تقتصر هذه الظاهرة على المدح بل وردت في العزل والهجاء ، كقول ابن الرومي في الهجاء :

يُقْتَرَّ عيسى على نفسه وليس بباقٍ ولا خالدٍ
فلو يستطيع لتقتيره تنفس من منخرٍ واحدٍ

وقوله في الغزل :

خطرات النسيم تجرح خديه ولمس الحرير يدمي بنانه

٥-المحسنات المعنوية :

(حسن التعليل ، الطباق والمقابلة ، التوجيه)

شغف الشعراء بألوان البديع وغالوا فيها فمنهم من ساير الطبعة فأبدع ومنهم من تكلف فتحلف ، ومن أبرز هذه المحسنات :

أ- حسن التعليل :

وهو تجاهل العلة الحقيقية والإتيان بعلة أدبية طريفة تناسب المقام ، مثل قول ابن الرومي :

لما تؤذن الدنيا به من صروفها يكون بكاءُ الطفل ساعةً يولد
وإلا فما يُكيه منها وإنما لأوسع مما كان فيه وأرغد

ب- الطباق والمقابلة :

الطباق : هو الجمع بين الشيء وضده في الجملة . مثل قول دعبل الخزاعي :

لا تعجبي ياسلم من رجل ضحك المشيب برأسه فبكي

أما المقابلة : فهي طباق مركب الطرفين ، وقد كثر على ألسنة الشعراء ، مثل قول أبي تمام:

أبقيت جد بني الإسلام في صعد والمشركين ودار الشرك في صيب

ج - التوجيه :

هو إيراد الكلام محتملا معنيين على طرف المساواة ، فلا يعلم أيهما المراد . مثل قول بشار في خياط أعور :

خاط لي عمرو قبَاءً ليت عينيه سواءً
قلتُ شعرا ليس يُدرَى أمديح أم هجاء؟!

ثالثا: في الألفاظ والأساليب :

عاش العرب في الأقاليم المفتوحة تنوشهم سهام العجمه من كل جانب ، وبفضل الله تعالى ثم بفضل القرآن الكريم ، ثبتت اللغة العربية أمام تيار العجمي ، بل اقتحمت عليها دارها ، ولكن رغم كل ذلك فقد:

١- تسربت العديد من الألفاظ والتراكيب الأعجمية إلى اللغة وظهر بعضا منها في الشعر .

مثل : النرجس ، النسرين ، الفالوذج ، الدياج ، الطيلسان وهي كلمات فارسية ، والقاموس ، الإسطرلاب ، المغناطيس وهي كلمات رومية . ومثل: أسلوب الإطناب الذي أخذ عن الفرس .

٢- ظهور الألفاظ العلمية في الشعر وتسربها إلى لغة الشعر ، مثل : الحركة ، السكون ، الكل ، البعض ، الجوهر ، العرض . يقول الخريبي :

إذا ما مات بعضك فبك بعضا فإن البعض من بعض قريب

٣- ظهور بعض الكلمات الصوفية في الشعر مثل : المرید ، القطب ، العاشق .

رابعاً : في الأوزان والقوافي :

استنبط الخليل علم العروض في النظر في التراث الشعري فاستخرج خمسة عشر بحراً ، واستدرك الألف بحراً واحداً سمي المتدارك ، فلما أقبل العصر العباسي وتطورت الأذواق الفنية لتطور الأنغام ، اتجهوا إلى استحداث أوزان أخرى تساير روح العصر وذوقه .

أهم المستحدثات في هذا العصر في الوزن اعتمدت على أن الشعراء:

أ- لجئوا للأوزان المهملة ، التي ولدها الخليل من عكس دوائر البحور ، فالمستطيل عكس الطويل ، فوزن البحر الطويل يقوم على (فعولن مفاعيلن) ويصبح وزن البحر المستطيل عكسه (مفاعيلن فعولن) وهكذا .

ب- لجئوا لأوزان جديدة وهي سبعة أوزان هي :

السلسلة والدوبيت والقوما والموشح والزجل والكان كان والمواليه .

-أما القافية فقد استحدثوا فيها الشعر المزدوج والمسمط :

أ- الشعر المزدوج :

وهو متفق عروضه وضربه في القافية ، والقافية تختلف من بيت لبيت ، مثل :

إن لقي اغترارٍ بالليل والنهارِ

حتى متى التوانِ ونحن في تفانِ

وكان للشعر التعليمي أكبر الأثر في ازدهار هذا اللون .

ب- المسمط :

تتألف القصيدة من أدوار كل دور أربعة أشطر تنفق كلها في القافية ، ما عدا الشطر الأخير ، الذي

يجب أن يوافق قافية العمود ذي القافية الثابتة التي بدأ بها الشاعر . مثل قول أبي نواس :

سلاف دنِ كشمس دجنِ

كدمع جفنِ كخمر عدنِ

فاحت بريحِ كريح شيعِ

يوم صبحِ وغيم دجنِ

ج - اتجاهات الشعر في العصر العباسي :

بدأ العصر العباسي بظهور اتجاهين شعريين متباينين : الأول ينهج نَهج القدماء و يسلك طريقتهم ، و الثاني يحاول الظهور بنهج شعري جديد مختلف يُعبّر عن عصره و مشاعر أصحابه.

أولاً : الاتجاه القديم :

و نعني به المحافظة على طريقة القدماء في نَظْم الشعر ، حيث يقوم الشاعر بنظم قصيدته بلغة و صور مستمدّة من النموذج الجاهلي القديم ، محاكياً إياه محاكاة تامة.

و قد كان لعلماء اللغة تأثير في دفع الشعراء إلى النظم على طريقة القدماء ، فقد جمعوا لهم اللغة و الشعر الجاهلي و الإسلامي ، و وضعوا لهم قواعد يسرون عليها ، و كأنهم بهذا الصنيع يريدون من الشعراء ألا يَحِيدُوا عن ذلك النهج ، بل إنهم ظلُّوا طوال العصر يبعثون فيهم الإيمان بأن الشعر القديم هو القدوة المثلى ؛ و لعلّ هذا ما دعاهم إلى أن يُسْقِطُوا كثيراً من شعر المُحدِّثين لا لسبب إلا لكونه جديداً ، خرج عن المثل الشعري القديم الذي يتمسك به اللغويون تمسكاً شديداً .

و لم يكن الباعث على تلك المحافظة لغوياً فحسب بل دينياً أيضاً ، فقد خاف علماء الدين و علماء اللغة معاً أن تَسْتَعْلِقَ دلالات ألفاظ القرآن الكريم و الحديث الشريف على إفهام الناس ؛ و خاصة أن كثيراً منهم كانوا حديثي عهد بالدين الإسلامي و اللغة العربية .

كذلك وقف الخلفاء العباسيون موقف علماء الدين و اللغة ، فقد حثوا العلماء على دراسة العربية و التعمُّق فيها ، و كانوا لا يَسْتَوِزِرُونَ و لا يستكتبون إلا من حذقها ، و قد كان كبار اللغويين أساتذة لمعظم الخلفاء العباسيين ، و كان هؤلاء الأساتذة يُمَثِّلُونَ أمام الخلفاء حين يمدحهم الشعراء ، فكان لا بدّ للشعراء أن يَرَوْقَهُمْ حتى ينالوا استحسانهم ، و يرى الخلفاء ذلك منهم فيجزلوا للشعراء العطاء .

لذا بدأ هذا العصر بظهور طائفة من الشعراء تحتذي النموذج القديم من الشعر ، و تنهج نَهج قصائده من الشعراء ذوي السليقة الفطرية الشعرية ، الذين استمرت البادية تمدُّ بهم الحاضرة كابن الدُّمَيْنَة و ابن مَيَّادَة ، و أبي حَيَّة التَّمِيرِي و غيرهم .

بل إن بعض الشعراء الذين حملوا شعلة التجديد كانوا يتكلَّفون الأسلوب الأعرابي في مدحهم للخلفاء كبشار بن بُرْدٍ و أبي نواس .

ثانيًا : الاتجاه الجديد:

ظهر الشعراء المجددون (المولّدون) في بداية العصر العباسي بنهج شعري جديد ، و ثقافة واسعة ، و رغبة في التعبير عن عصرهم و مشاعرهم ، و كانت الحضارة التي يعيشونها ، و الازدهار العلمي و الرقي الفكري دافعًا لهم للبحث عن الجديد في موضوعات الشعر و أسلوبه . و قد غلب هذا التيار على الشعر في العصر العباسي إذا قارناه بالتيار القديم ، فمنذ بداية هذا العصر نجد بشار بن برد و أبا نواس و أبا العتاهية ، و مسلم بن الوليد القديم و أبا تمام و غيرهم يحاولون هذا الجديد ، و إذا كان النقاد اللغويون قد وقفوا ضدّ هذا الاتجاه فقد ظهرت طبقة من النقاد شجّعته و وقفت إلى جانبه .

و على هذا النحو دفع التحضّر شعراء العصر العباسي إلى استحداث أسلوب مولّد جديد ، و هو أسلوب يعتمد على الألفاظ الواسطة بين لغة البدو الزاخرة بالكلمات الوحشية ، و لغة العامة الزاخرة بالكلمات المبتذلة ، أسلوب وسط بين الغرابة و الابتذال ، يحافظ على مادة اللغة و مقوماتها التصريفية و النحوية ، و يلائم بينها و بين حياة العباسيين المتحضرة .

و بشار في طبيعة من أرسوا هذا الأسلوب المولد الجديد ، و أسلوبه يتميز بالرصانة و الصفاء و الرونق . و تلاه جيل من الشعراء ، توزعوا بين من يؤثرون الجزالة و قوة البناء ، مثل مسلم بن الوليد و أبي تمام ، و من يؤثرون الليونة و السهولة ، مثل أبي العتاهية و أبي نواس عدا شعره الرسمي (شعر المديح) فكان يحتفظ فيه بالأسلوب القديم .

أبرز شعراء العصر العباسي واتجاهاتهم :

الاتجاه المحدد :

- بشار بن برد
- أبو نواس
- أبو العتاهية
- أبو تمام

الاتجاه التقليدي :

- البحتري

بشار بن برد

نشأته وحياته :

هو أبو معاذ بشار بن بُرد بن يَرْجُوح العُقَيْلي ، مولى فارسي ، كان رقيقاً لامرأة عقيلية أشفقت عليه فأعتقته فنسب إليها واستقر ولائه في بني عُقَيْل ونشأ في حجر هذا البيت العربي العريق فافتخر بولائه فيهم ، وبما أخذه عنهم بقوله :

إني من بني عُقَيْل بن كَعْبٍ موضعَ السيفِ مِنْ طُلَى الأعناقِ

وأصله من عجم طُخَارُسْتَانَ ، وقد لقب بالمرَعَثِ للرِّعَاثِ كان في أذنه وهو صغير ، وقيل لأن لقميصه جيبان ، واحد عن يمينه وآخر عن شماله ، فكان إذا أراد لبسه ضمه عليه من غير أن يدخل رأسه فيه ، وإذا أراد نزعَه حل أزراره وخرج منه فأشبهت تلك الجيوب الرِّعَاثِ لاسترسالها وتدليلها ، وقد ذكر الشاعر ذلك في قوله :

أنا المرَعَثُ لا أخفى على أحدٍ ذرت بي الشمس للقاصي وللداني

ولد بالبصرة في أواخر القرن الأول عام ٩٦هـ ، كفيف البصر منذ الولادة ، وفي ذلك يقول :

عميت جنينا والذكاء من العمى فجت عجب الظن للعلم موئلا

وحين شب كان ضخماً ، طويلاً ، مجدوراً ، جاحظ الحدقتين قد تغشاهما لحم أحمر ، فكان أقيح الناس عمى وأفظعهم منظراً ، كان من أسرة فقيرة ، فأبوه طَيَّان يعيش من ضرب اللِّين معيشة تقوم على الشظف ، قال الشعر ولم يبلغ العشر سنين ، وأول ما قاله في الهجاء لشيوعه في عصره ، وكان أبوه يضربه ضرباً مبرحاً لكثرة شكوى الناس منه ، وكانت أمه تستعطفه عليه ، فيقول : إني لأرحمه ولكنه يتعرض للناس ، فقال بشار : قل لهم أليس الله يقول : (ليس على الأعمى حرج) وعندما عادوا إلى برد يرددون شكواهم تلا عليهم الآية الكريمة ، فانصرفوا وهم يقولون : فقه برد أغيظ لنا من شعر بشار . وقد اشتد ببشار طموحه إلى إتقان العربية فيمم نحو البادية ، فأقام فيها فترة مكنت له في غريب لسانه وفي المعرفة الدقيقة باللغة العربية ولذلك كان يفتخر بفصاحته ويردها إلى نشأته الأولى في البادية ، ويقول : " من أين يأتيني الخطأ ، وقد نشأت في حجور ثمانين شيخاً من بني عقيل كلهم فصحاء ، فإذا عدت إلى نساؤهم أفصح منهم " . ثم عاد إلى البصرة وشهد فيها سوق المِرْبَدِ ومجالس المتكلمين .

وكان يمدح ولاة العراق في عهد بني أمية ، فلما جاءت الدولة العباسية اتصل بالبرامية ثم اتصل بالخليفة المهدي وصار شاعر البلاط الأثير ، وهذا يدل على أن بشار قد أدرك العصرين الأموي والعباسي ، وهي مسألة كان لها أثر كبير في حياته وشعره ، ولذلك يعد من مخضرمي الدولتين . وقد جعله بعض الرواة خاتمة الشعراء القدماء وبداية المحدثين ، كما يجعلونه آخر من يحتج بشعرهم من الشعراء .

وتباينت الروايات حول وفاة بشار الذي قتل في عهد المهدي سنة ١٦٧هـ ، فقيل أن المهدي قد ولى صالح بن داود أخا يعقوب بن داود ولاية فهجاه بشار بقوله :

همو حَمَلُوا فوق المناير صالحا أخاك فضجت من أخيك المناير

فبلغ يعقوب هجاءه فدخل على المهدي وقال له : بشار هجاك ، فقال : ويلك ماذا قال ؟ قال : يعفيني أمير المؤمنين من ذلك . فقال : لا بد . فأنشده شعر فيه فحش . فطلبه المهدي فخاف يعقوب أن يدخل عليه فيمدحه فيعفو عنه . فوجه من ألقاه في البطيحة

وقيل أن المهدي انحدر إلى البصرة فلما بلغ البطيحة سمع أذان في غير وقته ، فقال : أنظروا ما هذا الأذان ! فإذا بشار يؤذن سكرانا ، فقال له : يا زنديق أتلهو بالأذان في غير وقت صلاة وأنت سكران ، فأمر بضربه بالسوط ، فلما بلغ سبعين سوطا بان الموت منه ، فألقي في سفينة حتى مات فحملة الماء حتى أخرجته إلى دجلة البصرة ، فجاء بعض أهله فحملوه إلى البصرة فدفن بها وقد نيف على السبعين . كما قيل أن سبب ضرب المهدي لبشار الزندقة ، غير أن هذا الاتهام مشكوك فيه ، فقد وجدت صحيفة في منزله بعد وفاته فيها : بسم الله الرحمن الرحيم

إني أردت أن أهجو آل سليمان بن علي بن عبدالله بن العباس رضي الله عنهم ، فذكرت قرابتهم من رسول الله فأمسكت عنهم ، ووهبت جرمهم لله عز وجل ، وقد قلت فيهم بيتين لم أذكر فيهما عرض ولم أقدر في دين ، هما :

دينار آل سليمان ودرهمهم كالبابليين حفا بالعفاريت
لا يوجدان ولا يرجى لقاؤهما كما سمعت بهاروت وماروت

أما الشعبية فقد كان يدعو لها حتى أصبح النافخ الأكبر في أبواقها الفارسية ، وكان ذلك أمرا طبيعيا فقد أدرك فترة من الدولة الأموية ، ورأى ما يعانیه الموالى من اضطهاد وعنصرية متعصبة للجنس العربي ، فامتألت نفسه بالحقد والمرارة والسخط التي امتألت بها نفوس الموالى في هذا العصر ، ثم امتد به الأجل فترة غير قصيرة في العصر العباسي وشهد تغير الوضع الاجتماعي للموالى وارتفاع منزلتهم في الدولة الجديدة ، فانطلقت نفسه تخفف ما امتألت به من مكبوتات الحقد والسخط والمرارة ، ومضى يتنفس ملء صدره ليعبر عن فرحته بانتصار الفرس وشماته في هزيمة العرب وانحيار دولتهم في جراحة لم نرها له ولا لغيره من الشعراء الفرس في العصر الأموي ، ومضى يصيح في المجتمع الجديد صيحات منكرة يفضل فيها الفرس المتحضرين على العرب المتخلفين في موكب الحضارة ، من مثل قوله :

أحين كسيت بعد العربي خزا * * ونادمت الكرام على القصار
تفاخر يا ابن راعية وراعي * * بني الأحرار حسبك من خسار
و كنت إذا ظمئت إلى قراح * * شركت الكلب في ولغ الإطار
تريغ بخطة كسر الموالى * * وينسبك المكارم صيد فار

شعره :

تنتمي تجربة بشار بن برد الشعرية إلى منظومتين ثقافيتين : منظومة الإتياع والتقليد ، ومنظومة الإبداع والتجديد . فقد تمكن من المزاوجة بين اللغة العربية الصافية وتقاليد الشعراء القدامى من جهة ، وبين التنوع الثقافي والتطور الفكري اللذين شهدهما العصر العباسي من جهة أخرى . فمضى بشار يزاوج بين الماضي والحاضر يتلقى الماضي ويحياه ويتلقى الحاضر ويحياه ، وبذلك وصل الحاضر والماضي برقية العقلي وحياته الحضارية وصلاً عجيباً .

وبشار شاعر جامع قال في كل موضوعات الشعر وسلك في بعضها النهج التقليدي وفي البعض الآخر مزج بين التقليد والتجديد ، ومن أهم أغراضه الشعرية :

١ المدح :

يعد المدح أهم غرض وصل بشار بالتراث القديم ، فقد حافظ فيه محافظة شديدة على سننه الموروثة ، سواء من حيث جزالة الصياغة ورسائنها ومئاتها ، أو من حيث المنهج الذي سار عليه القدماء ، إذ كانوا يقدمون بين يديه وصف الأطلال والنسيب والغزل ووصف البعير أو الناقة ورحلتهم عليهما في الصحراء مستطردين إلى وصف مشاهد الطبيعة وما يجري فيها من حيوان ، ثم يخرجون من ذلك على مديح بمآثر الأفراد والقبائل ناثرين في أطراف قصيدتهم بعض الحكم . أو كذلك من حيث المعاني التي ساقها في وصف الخلفاء والولاة فهو يخلع عليهم نفس الشيم الرفيعة التي طالما خلعها الجاهليون والإسلاميون على ممدوحهم من الكرم والمروءة والشجاعة والنجدة وإباء الضيم . ومن قوله في المدح :

إلى سليمان راحت تفتدى جزقاً والخيرُ مُتَّبِعٌ والشرُّ مُجْتَنَبٌ
تزوره من ذرى الأحساب آونة وخير من زرت سلطان له حسب
أغرُّ أبلج تكفيناً مشاهدهُ في القاعدين وفي الهيجاء إذ ركبوا
ترى عليه جلالاً من أبوته ونصرةً من يدٍ تندی وتنتهبُ

٢ الرثاء :

لم يُؤثّر عن بشار مراتٍ كثيرة ، وربما رجع ذلك إلى أنه كان منغمساً في اللهو ، ومع ذلك فإننا نرى الموت يهز نفسه هنا حين فقد ابنه محمداً ، الذي قال في رثائه :

أجارتنا لا تجزعني وأنيبي أتاني من الموت المطل نصيبي
بُني على رغمي وسُخطي رزئته وبدل أحجاراً وجال قلب
كأنني غريب بعد موت محمدٍ وما الموت فينا بعده بغريب
يذكرني نوح الحمام فراقه وإرنان أبكار النساء وثيب
ولي كل يومٍ عبرةٌ لا أفضيها لأحظى بصبرٍ أو بحط ذنوبٍ
إلى الله أشكو حاجة قد تقادمت على حدث في القلب غير مُريب

٣ الغزل :

اشتهر بشار بالتفنن بالغزل ، ويتضح فيه عنده تمثله لكل ما نظم في هذا الفن قديما من التشبيب والنسيب وبكاء الديار ، ومن الغزل المادي عند عمر بن أبي ربيعة وأربابه من شعراء مكة والمدينة ، ومن الغزل العذري عند جميل وأمثلة ، وقد مضى في ذلك كله يستلهم الرقي العقلي الحديث والحضارة المادية التي يتنفس فيها ، ونجد أن الغزل الماجن الخليع قد انطلق فيه بشار على سجيته فجاء فيه بكثير من البديع وصور التجديد في الموسيقى والتعبير ، من ذلك :

يا ليلتي تزداد نكرا من حب من أحببت بكرا
حوراء إن نظرت إليك سقتك بالعينين خمرا
وكان رجوع حديثها قطع الرياض كسين زهرا
وكان تحت لسانها هاروت ينفث فيه سحرا

فقد جدد في البيت الثالث حيث حول صفة الكلام إلى صفة بصرية في تشبيه الحديث بزهر الرياض وهذا من مواضع البديع في شعره لأنه تجديد في المعنى . واتضح في هذه القطعة أثر فقده لبحره ، فإنه لا يكاد يرتفع عن نطاق الشم والسمع واللمس والحس ، وقلما ارتفع عن ذلك حتى أنه يرى أن السمع يحل محل العين في تقدير الجمال والإحساس التام به حيث يقول :

يا قوم أذني لبعض الحي عاشقة والأذن تعشق قبل العين أحيانا
قالوا بمن لا ترى تهذي ؟ فقلت لهم الأذن كالعين توفي القلب ما كانا

٤ المهجاء :

عرف بشار بالمهجاء فهو الذي يقول : إني وجدت المهجاء المؤلم آخذ بضع الشاعر على المديح الرائع ، ومن أراد من الشعراء أن يكرم في دهر اللئام على المديح فليستعد للفقير ، و إلا فليبالغ في المهجاء ليخاف فيعطى .

وقد أضفى بشار بن برد على شعره المهجائي ألوانا من السخرية اللاذعة لتزيد من مهانة المهجو والتشنيع به ، فلم يكتفي بدم المهجو وتجريده من الفضائل والخصال الحميدة وإصاق النقااص به ، إنما زاد على ذلك بأن رسم بشعره شخصية عجيبة وغريبة للمهجو تثير الاشمزاز أو الضحك ، على نحو قوله في هجاء عبيدالله بن قزعة :

خليلي من كعب أعينا أحاكما على دهره إن الكـريمَ معينُ
ولا تبخلا بخل ابن قزعة إته مخافة أن يرجى نداه حـزينُ
إذا جنته في الخلق أغلق بابهُ فلم تلقه إلا وأنتَ كـمينُ
إذا سلم المسكين طار فؤادهُ مخافة سُؤلٍ ، واعتـراه جنونُ

أهم سمات أشعاره :

- أ - كان بشار مطبوعا في معانيه وألفاظه لا يتكلف القول ولا يشعر في شعره بجهد المثقفين ، وإنما يجري كلامه سلسا سهلا .
- ب - أكثر من التجديد والتحديث في أشعاره فاستخدم ألوان من البديع ، واستخدم من البحور أوزان شعرية سهلة .

أما براعة بشار وعبقريته فتكمن في قدرته على استغلال العناصر القديمة وصياغتها صياغة جديدة ، وعرضها عرضا جديدا ، ففي هذه المقدرة التي سجلها كل الباحثين له يكمن سر عبقريته الفنية ، فالعمل الفني عنده يقوم على أساسين : أساس قديم يتمثل في التراث الفني الذي استوعبه بشار في ذاكرته ، وأساس جديد كان أثرا مباشرا للحياة الحضارية والحياة العقلية التي أدركها في العصر العباسي ، لذا فإنه يرجع الفضل في أن الشعر العربي في تطوره البعيد المدى في العصر العباسي لم يقطع حباله ولم يبتأسبابه بالشعر القديم ؛ لأنه وضع للشعراء في العصر العباسي أصول الشعر الجديد وتقاليدته التي يجب أن يحرصوا عليها، من غير أن ينفصلوا عن التراث القديم الذي وصل إليهم عبر السنين الطويلة .

أبو العتاهية

نشأته وحياته:

هو إسماعيل بن القاسم بن سويد العيني، أبو إسحاق، من قبيلة عترة، ولد في عين التمر سنة ١٣٠ هـ، فتفتحت عيناه على الحياة في الوقت الذي كانت الدولة الأموية تغمض فيه عينها فقد ولد قبل سقوطها بعامين، فشهدت طفولته تلك الحياة السياسية المضطربة التي عاش فيها المجتمع الإسلامي عقب الانقلاب العباسي، فشهد بعينه الصغيرتين رؤوسا تتطاير وأشلاء تتناثر وأرواحا تزهب ودماء تسيل، وانطبعت هذه الصور القائمة السوداء في نفسه منذ هذا الوقت المبكر من حياته، وهي صورة حجبتها الحياة عنه فترة من الزمن حين كان الشباب مخضر الإهاب، ولكنها عادت فظهرت قوية واضحة حين أخذت حياته تنحدر نحو الغروب.

وقد اتصل أبو العتاهية في صباه بفتيان الكوفة، ومضى يضرب معهم في شعاب الحياة اللاهية. ثم في صدر حياته مر بتجربة نفسية كان لها أعمق الأثر في حياته وفنه بعد ذلك، فقد تعلق قلبه بحب فتاة نائحة اسمها سعادى، ومضى يضرب معها في شعاب الموت والنواحة والسواد، واصطبغت نفسه في هذا الوقت المبكر من حياته بالتشاؤم الذي يثيره في نفسه حديث الموت الذي كان يتردد على شفطي هذه النائحة. ثم حيل بينه وبينها، إذ وقف مواليتها في وجهه، وصدم أبو العتاهية في أول تجربة عاطفية له، فاندفع في أثر هذه الصدمة نحو حياة لاهية متحللة.

وكان أبو العتاهية في هذه الفترة يعيش يعمل جَرَّاراً يصنع الجرار الخضر ويبيعها في الكوفة، وفي هذه الحرفة رأى أبو العتاهية مرة ثانية صورة لمصير الإنسان في الحياة، فهذه الطينة البكر التي يأخذها بين يديه ليسويها جراراً متعددة الأشكال مختلفة الأحجام، ثم يلقي بها إلى النار لتتحرقها حتى إذا ما أخرجت منها تشعبت بها السبل، واختلقت بها الحظوظ، فبعضها إلى قصور الأمراء حيث الغنى والثراء، وبعضها إلى أكواخ الفقراء حيث الفقر والشقاء، لكن المصير في الحالتين واحد، إنه العودة إلى التراب الذي صنعت منه. أليس هذه قصة الحياة؟ من التراب خلق الإنسان، ثم ألقى به في الحياة لتبلوه وتختبره ويتفاوت حظه، فشقي وسعيد، ولكن مصير الاثنين في النهاية واحد، إنه العودة إلى التراب الذي خلق منه.

وفي هذه الفترة أخذ أبو العتاهية ينظم الشعر وبدأ نجمه يلمع ، وأخذت ناشئة الأدب تسعى إليه لتأخذ عنه الشعر وترويه له ، ثم أراد أن يجرب حظه في الحياة شاعرا ، ولمعت أمام عينيه بغداد التي كانت تتألق بأضوائها ، فشد رحاله إليها ، وكان هذا في — أغلب الظن — في أوائل خلافة المهدي. وقبل أن يتصل أبو العتاهية بالمهدي ، مر بتجربة عاطفية أخرى ، فقد أحب عتبةَ جارية الخليفة حبا ملاً عليه أرجاء نفسه ، ومضى يصرح بحبه لها في شعره ، ولم يتورع عن ذلك حتى في مدحه للخليفة نفسه ، إذ كان يبدأ مدائحه فيه بالغزل فيها ، وكأنه كان يظن أنه سيهبها له .

ومما قاله فيها : يَا إِخْوَتِي إِنَّ الْهَوَى قَاتِلِي فَيَسِّرُوا الْأَكْفَانَ مِنْ عَاجِلِ

وَلَا تَلُومُوا فِي اتِّبَاعِ الْهَوَى
فَلِإِنِّي فِي شُغْلٍ شَاغِلِ
عَيْنِي عَلَى عُتْبَةَ مُنْهَلَّةُ
بَدَمِهَا الْمُنْسَكِبِ السَّائِلِ
يَا مَنْ رَأَى قَبْلِي قَتِيلًا بَكَى مِنْ شِدَّةِ الْوَجْدِ عَلَى الْقَاتِلِ
بَسَطْتُ كَفِّي نَحْوَكُمْ سَائِلًا
مَاذَا تَرُدُّونَ عَلَى السَّائِلِ

ولكن الخليفة كان مفتونا بها ، فغضب من تلميحات أبي العتاهية وأمر فزج به في غياهب السجن . وقضى به فترة من الزمن ثم أفرج عنه لشفاعة قام بها خال الخليفة الذي كان معجبا بأبي العتاهية . وعلى الرغم من ذلك ظل حب عتبة مشتعلًا بقلبه حتى جاءت خلافة الرشيد، والذي حاول بدوره التوسط من أجل زواج أبو العتاهية من عتبة ولكن لم يفلح الأمر أيضاً، وأصاب أبو العتاهية اليأس ومما قاله في ذلك:

قَطَّعْتُ مِنْكَ حَبَائِلَ الْأَمَالِ
وَحَطَّطْتُ عَنْ ظَهْرِ الْمَطِيِّ رِحَالِي
وَيَسِئْتُ أَنْ أَبْقَى لِشَيْءٍ نِلْتُ مِنْ
مَا فِيكَ يَا دُنْيَا وَأَنْ يَبْقَى لِي
وَوَجَدْتُ بَرْدَ الْيَأْسِ بَيْنَ جَوَانِحِي وَأَرَحْتُ مِنْ حَلِّي وَمِنْ تَرِحَالِي

وتحول أبو العتاهية إلى شاعر رسمي بعد هذه التجربة يؤدي واجبه التقليدي للقصر العباسي في بغداد ، فاتصل بالمهدي ثم بابنه المهادي ، وتوطدت علاقته بهارون الرشيد حتى أصبح شاعره الرسمي ، وأغدق عليه الرشيد الجوائز والعطايا ، وبدأت الدنيا تقبل عليه ، لكن ذلك جاء بعد الغروب ، فقد ودع أبو العتاهية شبابه محملاً بذكرات حزين وأخذ يستقبل شيخوخته فقرر أن ينصرف عن متع الحياة وملذاتها إلى الزهد والتقشف .

ومضى أبو العتاهية في زهده يجاهد نفسه مجاهدة عنيفة؛ إذ يفرض على نفسه الحج كل عام ، كما يفرض عليها اعتزال الناس والصوم عن الكلام ، وقد كانت بداية زهده تحمل محنة زجت به في السجن فقد قيل أن هارون الرشيد قد طلب من أبي العتاهية أن يقول شعرا في الغزل فرفض ، وصمم الخليفة على طلبه ، وصمم الشاعر على امتناعه ، فأقسم الخليفة عليه أن يقول شعرا في الغزل أو ليسجن ، وأقسم الشاعر ليصوم عن الكلام كله إلا قراءة القرآن وذكر لا إله إلا الله محمد رسول الله لمدة سنة وثار تائراً الرشيد وألقى به في السجن ، وتختلف الروايات حول المدة التي قضاها في السجن ، لكن أبو العتاهية بعد خروجه منه اعتزل حياة السياسة وأصبح شعره يدور حول المصير إلى أن أدركه في سنة يختلف الرواة حولها ، ولكن ابنه يذكر أنها كانت في سنة ٢١٠هـ .

حقيقة زهد أبي العتاهية:

تضاربت الأقوال في حقيقة زهد أبي العتاهية. و من ذلك :

- بعض النقاد يرون أن زهده لم يكن إلا نتيجة خيبته في حُب عتبة جارية المهدي، وهذا القول فيه شيء من المبالغة إذ لا يمكن أن تتسبب الخيبة في حب امرأة في حياة زهد تستمر حتى ٣٠ سنة.

- بعض الدارسين يرون أن زهده لم يكن إلا محاولة لإظهار براعته الفنية و تفوقه في غرض شعري يميزه عن غيره من الشعراء ولا ينافسه فيه أحد. مستندين في ذلك على رواية تاريخية تقول بأن أبا العتاهية قال لأبي نواس أنه ترك له جميع الأغراض من نسيب و مديح و رثاء و فخر. و طلب منه أن يترك له الزهد و لا ينازعه فيه. و قد ألف الدكتور محمد عبد العزيز الكفراوي كتابا بعنوان "أسطورة الزهد عند أبي العتاهية" وقد ذهب فيه إلى أن زهد أبي العتاهية ليس حقيقيا ولكنه أسطورة صاغها الأقدمون..وقد نفى زهده نفيا قاطعا معتمدا في ذلك على نصوص تاريخية وليس على نصوص شعرية!! وهذا أمر غريب. فالصحيح أن يحكم على الرجل من خلال أقواله وشعره..لا من خلال نصوص تاريخية أو من خلال نصوص غيره.

- و هناك من قال بأن زهد أبي العتاهية كان زهداً مانوياً ينادي بالشظف و التقشف في الدنيا دون أن يذكر الحياة الآخرة، و لكن هذا قول مردود. فأبي العتاهية يذكر الحياة الآخرة و الحساب و الثواب كثيراً في شعره.

موضوعات شعره الزهدي:

- الإكثار من ترديد الموت، و التذكير بمصير الإنسان. و أن الدنيا دار فناء و كل البشر مصيرهم تحت التراب:

أبقيت مالك ميراثاً لو ارثته	فليت شعري ما أبقى لك المال؟
القوم بععدك في حال يسرهم	فكيف بعدهم حالت بك الحال؟
ملوا البكاء فما يبكيك من أحد	واستحكم القيل في الميراث والقال

- ذكر الحساب و اليوم الآخر:

بأية جحة أحتج يوم الحـ	سباب إذا دعيت إلى حسابي
هما أمران يوضح عنهما لي	كتابي حين أنظر في كتابي
فإما أن أخلد في نعيم	وإما أن أخلد في عذاب

- الإكثار من المواعظ الدينية التي تتضمن حكماً متفرقة. و من أسس المواعظ الشعرية عند أبي العتاهية أنه يحقر شأن الدنيا ، فهي خداعة لا تدوم على حال، فما هي إلا زيف و خداع، و العجب أن الناس يغفلون عن الوعد المضروب و الأجل المحتوم:

الدهر ذو دولٍ والموتُ ذو عللٍ	والمرءُ ذو أملٍ والناسُ أشباهُ
و لم تنزل عبيراً فيهنّ معتبرٌ	يجري بها قدرٌ والله أجراه
والمُبتلى فهو المهجور جانبه	والناس حيث يكون المال والجاهُ
يا بائعَ الدين بالدنيا وباطلها	ترضى بدينك شيئاً ليس يسواهُ
حتى متى أنت في لهوٍ وفي لعبٍ	والموت نحوك يهوي فاغراً فاهُ

– الابتهاالات الدينية:

سبحان من هو لا يزال مسبّحاً أبداً وليس لغيره السبحان
سبحان من لا شيء يحجب علمه فالسر أجمع عنده إعلان
سبحان من تجري قضاياه على ما شاء منها غائب وعيان
سبحان من هو لا يزال ورزقه للعالمين به عليه ضمان
سبحان من في ذكره طرق الرضى منه وفيه الروح والريحان

أما طبيعة العمل الفني عنده وخصائصه الفنية : فإنه يلاحظ عليه أنه فنان أصيل ذو مقدرة فائقة على قول الشعر ، يعبر عن كل ما يدور في ذهنه من معان وأفكار في سهولة ويسر ، فهو ينظم الشعر كما لو كان يتكلم ، وقد شعر بذلك أبو العتاهية فكان يقول : " لو شئت أن يكون حديثي كله شعرا موزونا لكان " ، لذا فهو شاعر مكثر إلى درجة مفرطة

أما أسلوبه فيقوم على الانحدار بشعره إلى مستوى العامة يحدثهم بالأسلوب الذي يفهمونه ، ويستخدم فيه الألفاظ والصور التي يألفونها ، ولكن هذا الأسلوب الشعبي أكثر ما يظهر في شعره الزهدي ، أما إذا خرج عن دائرة الزهد إلى الموضوعات الأخرى فإنه يقلد القدماء ويحرص على احتذاء مثلهم الفنية . ومن هنا كان النقاد القدماء يصفون شعره بالتفاوت ، ويقولون إنه " كساحة الملوك يقع فيها الجوهر يقع فيها الحصى "

أبو نُؤاس

نسبه ونشأته :

هو أبو علي الحسن بن هانئ المعروف بأبي نواس فارسي الأصل عربي بالولاء، كان جده من موالي الجراح بن الحكم والي خرسان من قبل عمر بن عبدالعزيز رحمه الله ولذلك يقال الحكمي نسبة إلى هذه القبيلة اليمينية ، والروايات مختلفة في تاريخ مولده ، وهي تمبط به إلى سنة ١٣٦هـ ، وترتفع به أحيانا إلى سنة ١٤٩هـ ، وتذكر سنوات أخرى بينهما ، كذلك اختلف في وفاته من ١٩٥ إلى ١٩٩هـ لكن قصيدته في رثاء الأمين الذي قتل في عام ١٩٨هـ ترجح سنة ١٩٩ لوفاته .

كان أبوه من جند مروان الثاني ، قدم الأهواز مع الجيش المرابط فتزوج من فارسية اسمها "جلبان" ، ثم توفي والده وهو في السادسة من عمره ، فانتقلت به أمه إلى البصرة ، وكان في صغره يبري أعواد البخور ، ويختلف إلى مجالس العلم في البصرة ، فتأدب على يد أستاذه خلف الأحمر ، وقرأ القرآن على يعقوب الحضرمي ، وفي العشي كان يذهب إلى حلقات المسجد الجامع فيسمع من أبي عبيدة أخبار العرب وأيامهم ، ومن أبي زيد غرائب اللغة ، ثم ساقه القدر ليتعرف على والبة بن الحباب أحد مجان الكوفة المشهورين ، فحثه على مرافقته إلى الكوفة ومضى معه ، وهكذا وقع في حبائل شيطان كبير ، غمسه فيما كان فيه من خطايا وآثام مع عصبه من مجان الكوفة مثل: مطيع بن إياس وحماد عجرد ، وثاب قليلاً إلى رشده فخرج إلى بادية بني أسد وظل بينهم حولاً كاملاً يتزود من ينابيع اللغة ، ثم عاد للبصرة حيث كان يلقي في المربد الأعراب الفصحاء ، وحثه أستاذه خلف الأحمر على حفظ الشعر القديم ، فحفظ مئات الأراجيز والقصائد ، كما طلب علم الكلام واستظهر مصطلحاته ، ثم رحل إلى بغداد وقد زاد عمرة على الثلاثين ، فمدح الرشيد ونال جوائزته التي أنفقها في الحانات والأديرة ، ووصل ذلك إلى سمع الرشيد فحبسه مراراً ، وحين توالى الأمين الخلافة اتخذ أبا نواس نديماً له يمدحه واستغل ذلك المأمون في حربه مع الأمين ، فحبسه الأمين ثم أطلقه حين أستعطفه الشاعر ولم يلبث أن قتل الأمين ١٩٨هـ فتوفي الشاعر بعده بسنة .

مذهبه في الحياة :

لم يكن لشاعرنا مذهب يعتمده إلا اللذة ، ويظهر هذا في خمرياته ومجونته ، ومع أنه مسلم يؤمن بالله ورسوله لكنه مستهزئ عابث تحكمه نفسه صبيانية لازمته طوال حياته ، وكان شديد الاتكال على عفو الله ، وكان هذا هو الحل لديه للتوفيق بين اللذة والدين ، فلديه ثقة مطلقة بعفو الله تفضي به إلى الظلال والمنكرات دون حياء ، من مثل قوله :

غَادِ المَدَامَ، وَإِنْ كَانَتْ مَحْرَمَةً ، فَلِلْكَبَائِرِ عِنْدَ اللَّهِ غُفْرَانُ

مكانته :

امتزجت في شخصية أبي نواس تأثيرات عديدة من ثقافة واسعة ، وملكة شعرية ، وعيش في بيئة حضارية مترفة ، وفوق كل ذلك مزاجه الذي يميل إلى الهزل والفكاهة والتندر بكل شيء ، قال عنه الجاحظ "ما رأيت أحد أعلم باللغة من أبي نواس"

شعوبيته:

لم يكن أبو نواس يفضل الفرس على العرب من حيث الدم والعنصر إذ تلك أمور لا تهمة ولكنه يفضل عيش الحضرة كما عرفه الفرس على عيش الأعراب وحياتهم البدوية القاسية ، من مثل قوله:

دع الرِّسْمَ الذي دَثَرَا، يقاسي الرِّيحَ والمَطْرَا

ألم ترَ ما بنى كسرى ، وسابورا لمن غبرا

وربما كان ذلك من أسباب دعوته إلى بدء القصائد بالخمريات بدل الوقوف على الأطلال يقول :

صِفَةُ الطَّلُولِ بلاغَةُ القِدْمِ فاجعَلْ صفاتِكَ لابنةِ الكَرَمِ

وقوله :

عاجَ الشَّقِيَّ على رسمٍ يُسائِلُهُ وعُجْتُ أسألُ عن حَمَّارَةِ البلدِ

ولكننا نلاحظ أن في شعره شيء من شعوبية الدم والعنصر مثل قوله:

بيكي على طلل الماضين من أسد لا در درك قُل لي من بنو أسد ؟

ومن تميم ؟ و من قيس ؟ ولفهما ليس الأعراب عند الله من أحد

نظرة في ديوانه :

يلاحظ المتأمل في ديوانه مجيء العديد من القصائد المنسوبة إلى أبي نواس وهي ليست له ولذا علينا التأني في إصدار الأحكام على شخصيته لأن :

١ - لأن كثير مما قاله في شعره قاله تظرفا وعبثا .

٢ - للبعض الآخر من شعره نظمه أثناء معاقرته للخمر .

٣ - كثرت ما حمل عليه من شعر الخمر و الجون يقول ابن المعتز: " إن العامة الحمقى قد نُجحت أن

تنسب كل شعر الجون إلى أبي نواس وكذلك تصنع في أمر مجنون بني عامر كل شعر فيه ليلي

تنسبه إلى المجنون " .

٤ - يذكر أن قصائد بعض الجان التي فقدت قد دخلت في ديوان أبي نواس مثل: الحسين بن

الضحاك والوليد بن يزيد ، ومن ذلك القصيدة المشهورة :

إصدعْ نَجِيَّ الأَهمومِ بالطَّرَبِ، و انعمْ على الدَّهرِ بانبئةِ العنْبِ

وهي خمسة عشر بيتا وهي في الحقيقة للوليد بن يزيد.

فنون شعره :

شخصية أبي نواس نمت في اتجاهين :

اتجاه يحافظ على التقاليد الفنية وذلك في المدح والرثاء و الأراجيز .

واتجاه يحدد فيه تجديدا واسعا في الغزل والهجاء والخمريات وكل ما يتصل بالعبث واللهو .

الفن الأول : المدح:

اضطر ابي نواس للتكسب بشعره ، فسار في المديح على طريقة القدماء فوقف على الطلل ، وذكر الرحيل ، ووصف الناقة ، ولكن دون أن يطل حتى يبلغ الممدوح فيسبغ عليه صفات الكرم والشجاعة وشرف النسب ويظهر هذا النوع الرسمي في القصائد التي مدح بها الرشيد و البرامكة والخصيب والي مصر في زمنه .

أما إذا أنس من ممدوحه شيء من الألفة والمودة فتجيء مدائحه بألفاظ أرق ، مثل مدحه

لمحمد الأمين الذي كان صديقا له ، و من مثل قصيدته التي كان مطلعها :

يا دارُ ما فعلتِ بكِ الأيامُ ضامتكِ والأيامُ ليسَ تُضامُ

والتي قال فيها :

وَإِذَا الْمَطِيُّ بِنَا بَلَعْنَ مُحَمَّدًا فَظُهُورُهُنَّ عَلَى الرِّجَالِ حَرَامُ
قَرَّبْنَا مِنْ خَيْرٍ مَنْ وَطِئَ الْحَصَى فَلَهَا عَلَيْنَا حُرْمَةٌ وَذِمَامُ
رُفِعَ الْحِجَابُ لَنَا فَلَاحَ لِنَاظِرٍ قَمَرٌ تَقَطَّعُ دُونَهُ الْأَوْهَامُ
مَلِكٌ إِذَا عَالَقَتْ يَدَاكَ بِحَبْلِهِ لَا يَعْتَرِيكَ الْبُؤْسُ وَالْإِعْدَامُ

الفن الثاني: الرثاء :

الرثاء قليل جدا في ديوانه له بعض المقطوعات في خلف بن الأحمر، ووالبة بن الحباب ، و

أبيات مشهورة في رثاء الأمين مثل قوله :

طَوَى الموت ما بيئي وبين محمد وليس لما تطوي المنية ناشر
وكنتُ عليه أحذر الموتَ وحده فلم يبق لي شيءٌ عليه أحاذير
لئن عمّرت دُورٌ بمن لا أحبه لقد عمّرت ممن أحبّ المقابر

الفن الثالث: الهجاء:

هجاء ابي نواس متين التركيب خشن لاذع فيه روح النكتة لا يتعفف عن ذكر ما يقبح ولكنه

لا يحمل ذلك الحقد على البشر وهو على نوعين :

أ - هجاء قومي قبلي :

يهجو عرب الشمال أو عرب الجنوب أو العرب جميعا (سكان البادية) فيعيب طريقة

حياتهم ويميل إلى الحياة المتحضرة .

ب- الهجاء الشخصي:

وعند ذلك يجعل من المهجو أضحوكة بين الناس مثل قوله:

رأيت الفضل مكتئبا يناغي الخبز والسمكا

فأسبل دمه لـ رأني قادمًا وبكى

فلما أن حلفت له بأني صائم ضحكا

وقال في هجاء رجل اسمه سعيد :

رغيفُ سعيدٍ عنده عدلٌ نفسه يقلبُهُ طورًا وطورًا يلاعِبُهُ

ويُخرجه من كَمِّهِ فَيَشْمَمُـهُ ويُجلِسُهُ في حِجْرِهِ ويخاطِبُهُ

وإن جاءه المسكينُ يطلبُ فضلَهُ فقد ثكلته أمُّه وأقارِبُهُ

يكرُّ عليه السَّوطُ من كلِّ جانبٍ وتُكسِرُ رجلاه، ويتتفُّ شاربُهُ

٤-الطرديات :

هي الأشعار التي تصف الصيد وآلاته وأدواته كالكلاب والصقور والسهام، وكان أبو نواس

يخرج مع الأمراء للصيد فيصف ما يرى وتتسم طردياته بـ :

١ ينظمها في أراجيز .

٢ على روي واحد .

٣ يكثر فيها الغريب .

٤ يفصل أوصاف الكلاب والطيور والأسلحة .

٥ تتسم بالجد وليس الهزل .

٥- الخمريات :

هذا أبو نواس شاعر الخمر سبق إلى معاني في الخمر لم يأت بها أحد قبله دون تقليد ولا تكلف وصف الخمر قبلة كثيرون ولكن كان وصفا سطحيا ولم يكن غرضا مستقلا .

وقد وجدت مجموعة الخصائص في شعر الخمر عند أبي نواس ، هي :

- ١ جعلها موضوعا كاملا بتفاصيل محددة .
 - ٢ أدخل القصص على شعره الخمري وهو ما عرف ((بالقصص الخمري)) .
 - ٣ لم يترك فيها وصف إلا أحاط به وتلمسه بكل حواسه منظورا ومشموما ومذاقا وتأثيرا في النفس ، حيث يسجل مفعولها في النفس مثل قوله :
- ألا فاسقني خمراً، وقل لي: هي الخمرُ، ولا تسقني سراً إذا أمكن الجهرُ
- ٤ أطال الحديث عن أصولها وكرومها وطريقة صنعها وحنانها وآنيها المزينة بالرسوم الفارسية ومجالسها وما فيها من الندماء والمغنيات .
 - ٥ تشخيص الخمر أي : استنطاقها ومخاطبتها مثل الإنسان فيجعلها حيناً أمه وحيناً صاحبه .
 - ٦ ما يتسم به شعر الخمر من ظُرف وخفة روح وصراحة .
 - ٧ العاطفة الصادقة المشبوبة .
 - ٨ للألفاظ الرشيقة السهلة السلسلة التي لا صعوبة فيها .
 - ٩ للأوزان المطربة والقوافي الخفيفة .

— ١٠ —

٦ الغزل :

كان أبو نواس منذ حداثة ميالا إلى العبت والمجون طروب النفس له شعر كثير في الغزل

من ذلك قوله : حاملُ الهوى تعبُ يستخفه الطربُ

إن بكى يحقُّ له ليس ما به لعبُ

تضحكين لاهية والمحبُّ ينتحبُ

تعجيبين من سقمي صحتي هي العجبُ

كلما انقضى سببُ منك عاد لي سببُ

٧- الزهد :

جاء أبو نواس بهذا الفن في آخر حياته ومع قلة شعره في ذلك إلا أنه من أحسن وأجود ما قال ، لأنه كان صادقاً في التعبير عن نفسه حين تاب توبة صادقة فنشعر في كل بيت بخشية تروعك ورهبة تستولي على نفسك ، وقد كان أبو العتاهية شاعر الزهد شديد الحسد لأبي نواس على أقواله في الزهد كان يقول : " سبقني أبو نواس إلى ثلاثة أبيات وددت أني سبقته إليها بكل شعري فإنه أشعر الناس فيها ، وهي قوله :

يا كبير الذنب عفو الله من ذنبك أكبر

وقوله : من لم يكن لله متهماً لم يمس محتاجاً الى أحد

وقوله : إذا امتحن الدنيا لبيب تكشفت له عن عدو في ثياب صديق

ومن أروع ما قال:

يا رَبِّ إنَّ عَظُمَتِ ذُنُوبِي كَثْرَةً	فَلَقَدْ عَلِمْتُ بِأَنَّ عَفْوَكَ أَعْظَمُ
إنَّ كَانَ لَا يَرْجُوكَ إِلَّا مُحْسِنٌ	فَبِمَنْ يَلُودُ وَيَسْتَجِيرُ الْمُجْرِمُ
أَدْعُوكَ رَبِّ كَمَا أَمَرْتَ تَضَرُّعاً	فَإِذَا رَدَدْتَ يَدِي فَمَنْ ذَا يَرْحَمُ
مَا لِي إِلَيْكَ وَسِيلَةٌ إِلَّا الرَّجَا	وَجَمِيلُ عَفْوَكَ ثُمَّ أَنِّي مُسْلِمٌ

نموذج شعري من خمريات أبي نواس : دع عنك لومي فإن اللوم إغراء

من ينظر في ديوان أبي نواس يلاحظ أنه لا يمتاز بالمدح ولا بالهجاء ولا بغير هذه الفنون، بل إنه يمتاز بشعره الخمري، الذي اقترن ذكره به وبقي اسمه ملازماً له حتى يومنا هذا. قيل: إنه شاعر الخمر وقيل: إنه مؤسس مدرسة الخمر، واعتبره الكثيرون زعيماً بلا منازع للخمريات في الأدب العربي .

والقصيدة التي بين أيدينا نموذج لهذا الشعر الذي عرف به أبي نواس ، وهي قصيدة منطلقة من اللوم الذي تعرض له الشاعر من صديقه إبراهيم النظام زعيم المعتزلة الذي قال له - بحسب رأي المعتزلة - إن شارب الخمر إذا مات ولم يتب فهو خالد مخلد في نار جهنم ، لذلك نصح أبي نواس وطلب منه ترك شرب الخمر والتوبة إلى الله ، فاعتبر أبو نواس ذلك تعريضاً به ، وبأن إبراهيم النظام متطرف مسيء إلى الدين لأنه ألغى العفو منه .

النص الشعري :

دَعْ عَنْكَ لَوْمِي فَإِنَّ اللَّوْمَ إِغْرَاءُ	وَدَاوِنِي بِأَلْتِي كَانَتْ هِيَ الدَّاءُ
صَفْرَاءُ لَا تَنْزِلُ الْأَحْزَانَ سَاحَتِهَا	لَوْ مَسَّهَا حَجْرٌ مَسَّتْهُ سَرَّاءُ
قَامَتْ بِإِبْرِيْقِهَا ، وَاللَّيْلُ مُعْتَكِرٌ	فَلَا حَ مِنْ وَجْهِهَا فِي الْبَيْتِ لِأَلَاءُ
فَأَرْسَلَتْ مِنْ فَمِ الْإِبْرِيْقِ صَافِيَةً	كَأَنَّمَا أَخَذَهَا بِالْعَيْنِ إِغْفَاءُ
رَقَّتْ عَنِ الْمَاءِ حَتَّى مَا يَلِائِمُهَا	لَطَافَةً ، وَجَفَا عَنِ شَكْلِهَا الْمَاءُ
فَلَوْ مَزَجْتَ بِهَا نُورًا لَمَازَجَهَا	حَتَّى تَوْلَدَ أَنْوَارٌ وَأَضْوَاءُ
دَارَتْ عَلَى فِتْيَةٍ دَانَ الزَّمَانُ لَهُمْ ،	فَمَا يُصِيبُهُمْ إِلَّا بِمَا شَاؤُوا
لِتِلْكَ أَبْكِي ، وَلَا أَبْكِي لِمُتْرَلَةٍ	كَانَتْ تَحُلُّ بِهَا هِنْدٌ وَأَسْمَاءُ
حَاشَا لِذُرَّةٍ أَنْ تُبْنَى الْخِيَامُ لَهَا	وَأَنْ تَرُوحَ عَلَيْهَا الْإِبِلُ وَالشَّاءُ
فَقُلْ لِمَنْ يَدَّعِي فِي الْعِلْمِ فِلْسَفَةً	حَفِظْتَ شَيْئًا ، وَغَابَتْ عَنْكَ أَشْيَاءُ
لَا تَحْظُرُ الْعَفْوَةَ إِنْ كُنْتَ امْرَأً حَرَجًا	فَإِنَّ حَظْرَكَهُ فِي الدِّينِ إِزْرَاءُ

شرح الأبيات :

وَدَاوِنِي بِأَلَّتِي كَانَتْ هِيَ الدَّاءُ

دَعَّ عَنكَ لَوْمِي فَإِنَّ اللُّومَ إِغْرَاءُ

بدأ الشاعر قصيدته برفض اللوم رفضاً تاماً صارماً بفعل الأمر الذي وجهه لإبراهيم النظام (دع عنك لومي) ، ثم تبعه بتبرير فلسفي لعدم جدوى اللوم بعامّة؛ إذ يراه الشاعر ذا مفعول عكسيّ، لأن اللوم يغري المَلُوم بالتصلّب في موقفه وسلوكه، ثم كان فعل الأمر من جديد متوجه إلى المخاطب (وداوني بالتي كانت هي الداء) ليطلب منه أن يداويه بالخمرة نفسها التي يلومه فيها لأنها دائه ودوائه ، وقوله هذا مستقى من قول الأعشى :

وكأس شربت على لذة وأخرى تداويت منها بها

لَوْ مَسَّهَا حَجْرٌ مَسَّتْهُ سَرَّاءُ

صَفْرَاءُ لَا تَنْزَلُ الْأَحْزَانَ سَاحَتِهَا

وانتقل بعد ذلك مباشرةً إلى تحديد هذا الدواء الذي يراه اللائم داءً، فإذا هو الخمرة -سبب اللوم ودافع النظم-، فوصفها ووصف مجلسها، وذكر لونها وأثرها في النفس، فهي خمرة صفراء اللون تبعث السرور ؛ لأن الأحزان لا تنزل مجالس الخمر ، فالخمر والحزن لا يلتقيان كما يرى ، ثم عمد إلى المبالغات التي تبلغ حد الغلو ، وذلك حين زعم أنه لو حصل تماس بين الخمر والحجر لتملكه الفرح ، ولسرت فيه نشوة السرور .

فَلَا حَ مِنْ وَجْهِهَا فِي الْبَيْتِ لِأَلَاءِ

قَامَتْ بِإِبْرِيْقِهَا ، وَاللَّيْلُ مُعْتَكِرٌ

معتكر : شديد الظلام . فلاح : ظهر . لألاء : ضوء لامع .

بعد وصفه للون الخمرة وأثرها ، ذكر عنصراً جمالياً مهماً في مجالس الشرب تُمثله الساقية ذات الوجه المتوهج ألماً ، وقد أحسن الشاعر في تحديده للوقت وفي وصفه له (والليل معتكر) لأنه ناسب مبالغته في وصف أثر وجه الساقية الذي شع في البيت فأضاء أرجائه .

كَأَنَّمَا أَخَذَهَا بِالْعَيْنِ إِغْفَاءُ

فَأَرْسَلَتْ مِنْ فَمِ الْإِبْرِيْقِ صَافِيَةً

أرسلت : صببت . صافية : أي خمرة صافية . أخذها بالعين : نظر العين إليها .

ثم انطلق في وصف محبوبته التي صبتها هذه الساقية ، خمرة صافية تسطع حتى لا تستطيع العين التحديق بها فيصيبها إغفاء ، لأن أثر هذه الخمرة الصافية أشبه بأثر النعاس في إطباق الجفن وإغماض العينين .

لَطَافَةٌ ، وَجَفَا عَنْ شَكْلِهَا الْمَاءُ

رَقَّتْ عَنِ الْمَاءِ حَتَّى مَا يَلَائِمُهَا

وهذا الصفاء ليس الصفة الوحيدة التي رآها الشاعر في محبوبته ، فللخمرة لطافة متناهية جعلتها أرق من الماء والطف منه ، حتى أن الماء جفا عنها ولم يعد يمتزج بها لهذه الرقة التي فاقتها بها ، فالشاعر يجعل الخمرة أرق من أرق السوائل ؛ حتى تكون ألطف الأشياء المادية . وقد أستخدم الشاعر التكرار في قوله : (ما يلائمها ، وجفا) ليؤكد على هذه الفكرة .

حَتَّى تَوَلَّدَ أَنْوَارٌ وَأَضْوَاءُ

فَلَوْ مَزَجْتَ بِهَا نُورًا لَمَازَجَهَا

وهذه الخمرة التي تفوق الماء رقة ولطافة جعلها الشاعر ذات طبيعة نورانية ، فهي لا تمتزج إلا بالنور لأنه من طبيعتها ، وهذا الامتزاج يتولد بفيض من الأنوار والأضواء ، وهو بهذا يقرب بها من الروحانية .

فَمَا يُصِيبُهُمْ إِلَّا بِمَا شَاءُوا

دَارَتْ عَلَى فِتْيَةٍ دَانَ الزَّمَانُ لَهُمْ

ثم بعد وصفه للخمر يذكر الشاعر ندماءه جاعلاً إياهم رجالاً طافحين فتوةً، يعرفون كيف ينهلون من نبع اللذة، مثبتين أنه في مستطاعهم أن يتحكّموا بمصائرهم ، وحضورهم في مجالس الخمرة هو التعبير عن ذلك. حضورهم ذاك هو اقتناصُ مُتَعٍ وقطفُ أفراحٍ.

كَانَتْ تَحُلُّ بِهَا هِنْدٌ وَأَسْمَاءُ

لِتِلْكَ أَبْكِي ، وَلَا أَبْكِي لِمِزْلَةٍ

والخمرة التي تتوافر فيها مواصفات عظيمة إلى هذا الحدّ - كما تبدّى في وصف الشاعر لها-، خمرة كهذه جديرة أن يتعلّق القلب بها والروح -وَفَقَّ منطلق أبي نواس- لهذا جعل بكائه لها بعد أن أشار إليها (لتلك أبكي) في دلالة على قربها منه ، أما البكاء الذي اعتاده العرب في بداية قصائدهم على أطلال المحبوبات التي كنى عنهن بهند وأسماء ، فهذا الأمر لا يستحق البكاء في نظر أبي نواس ، وهنا تبدى التزعة الشعبية التي عرف بها الشاعر تجاه العرب .

وَأَنْ تَرُوحَ عَلَيْهَا الْإِبِلُ وَالشَّاءُ

حاشا لِدُرَّةَ أَنْ تُبْنَى الْخِيَامُ لَهَا

حاشا : اسم يراد به التثريه . الدرة : اللؤلؤة العظيمة .

والشاعر الذي أظهر شعوبيته في البيت السابق يحدد سبب هذه الشعوبية عبر تثريه للخمرة التي استعار لها الدرة لبيان قيمتها العظيمة ، وهو تثريه عن أن تعيش في البادية وسط الخيام تصيها الروائح الكريهة التي تنبعث من الإبل والشاة ، وهي ذات الرائحة الطيبة الجميلة ، وهذه الشعوبية تظهر أن شعوبية أبي نواس منطلقة من باب تفضيل الحضارة على البداوة التي كان يعيشها بعض العرب في عصره

حَفِظْتَ شَيْئًا ، وَغَابَتْ عَنْكَ أَشْيَاءُ

فَقُلْ لِمَنْ يَدَّعِي فِي الْعِلْمِ فِلْسَفَةً

فَإِنَّ حَظْرَكَ فِي الدِّينِ إِزْرَاءُ

لَا تُحْظَرُ الْعَفْوَ إِنْ كُنْتَ امْرَأً حَرْجًا

تحظر : تمنع . حرجا : مضيقا . حظركه : حظرك إياه أي : منعك إياه . إزرء : تعيب وتحقير .

بعد هذا الوصف التبريري للخمر ، يعود الشاعر إلى ذكر لائمه النظام، فيتهمه بادعاء المعرفة الدينية أو الإيمانية، وبالترمت والإساءة إلى جوهر الدين (وجوهره التسامح والرحمة والمغفرة)، حين يزعم أن المغفرة الإلهية لن تكون لمن هم على شاكلة أبي نواس من ذوي المحون والتهتك .

أسلوب الشاعر ، اعتمد على :

- ١ توليد صورة ذهنية تقوم على تركيب لغوي شرطي تعجيزي (عبر "لو") في مبالغاته التي رسمت صورة لا حضور لها في واقع الحياة ، ("لو مسها حجر مسته سراء" ، "فلو مزجت بها نوراً لمأزجها"...) ، وهذا يظهر شدة انفعال الشاعر بالخمرة ، إذ يكشف بهذه المبالغات، التي تحاول تجاوز الواقع المحسوس والتفوق عليه، يكشف عن شوق إليها دائم عارم، وعن تقدير لها يحدو به إلى اعتبارها حالة من العجب والسحر.
- ٢ استعمال الحواس في وصفها وفي بيان أثرها ، فلونها الأصفر الذي تدركه الأبصار ، وضياؤها المتوهج الذي يصيب العين بالإغفاء ، والفرح والسرور الذي يصيب الحجر بملامستها ، هو من باب التبرير الذي يدافع من خلاله عن تعلقه بهذه المحبوبة .
- ٣ إكساب الخمرة صفات الأنوثة ، فقد كساها الشاعر رداء الأنوثة والنعومة —من حيث يدري أو لا يدري — فهي امرأة كاملة الأنوثة والرقّة (رقت عن الماء حتى ما يلائمها ..لطافة وجفا

عن شكلها الماء) ، وهي جوهرة عظيمة نفيسة (حاشا لدرة أن تبني الخيام لها) ، ليجعل منها
أنتى قادرة على منافسة حبيبات الشاعر العربي في مقدماته .

٤ حمل الشاعر نصه الكثير من أفكار وثقافة عصره ، فالشعبوية الأدبية التي انتشرت عند بعض
الشعراء تظهر في قوله : لَيْلِكَ أَبْكِي ، ولا أبكي لمتزلة **** كانت تحلُّ بها هندٌ وأسماءُ

والشعبوية الاجتماعية التي تقوم على تفضيل حياة الحضر على حياة البدو برزت في هذا العصر
وعكسها قوله :

حاشا لِدُرَّةَ أَنْ تُبْنَى الخِيَامُ لها **** وَأَنْ تَرُوحَ عَلَيْهَا الإِبِلُ وَالشَّاءُ

أما الفلسفة فتظهر في التحليل النفسي السريع في مطلع القصيدة ، حيث يُظهر الشاعر درايةً بطبيعة
البشر، إذ يعتبر المعاندة طبعاً متأصلاً في النفس البشرية، ومن ثم فاللوم جهد مضيق، وبخاصة إذا كان
على المأل؛ فهو عند ذاك - وإن ارتدى كساء الحرص والنصح والإرشاد والتوجيه - لا يختلف عن
التقريع.

وللفكر المرجئي أثرٌ في النصّ (في ختامه). فاتكّال الشاعر على رحمة الله مردهً أنّه أخذ بالفكرة المرجئية
(نسبةً إلى فرقة المرجئة) ، الفكرة التي مفادها أنّ المؤمن المرتكب للكبيرة يعاقب في الجحيم بمقدار
خطيئته، ثمّ يحظى بثواب الجنة، وقد يُعفى عنه كلياً سلفاً؛ وتلك فكرة لاقت لدى أبي نواس قبولاً
وراقته له، فمن خلالها حلل لنفسه معاقرة الخمر دون خشية من عقاب.

وأخيراً ، فإن قصيدة الخمر عروس شعر أبي نواس ، وفيها تجلت عبقريته المحددة التي رفعته فوق السابقين
واللاحقين، فكان من أشهر من قالوا فيها، وقد جعل لها في الأدب العربي باباً مستقلاً كاملاً. لكن هذا
الجمال الأدبي كان قائم على فساد في الموضوع ، فالخمر أم الخبائث ، وقد نهي عنها الرحمن بقوله : (
يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِنَّمَا الْخَمْرُ وَالْمَيْسِرُ وَالْأَنْصَابُ وَالْأَزْلَامُ رَجْسٌ مِنْ عَمَلِ الشَّيْطَانِ فَاجْتَنِبُوهُ لَعَلَّكُمْ
تُفْلِحُونَ (٩٠)) إِنَّمَا يُرِيدُ الشَّيْطَانُ أَنْ يُوقِعَ بَيْنَكُمْ الْعَدَاوَةَ وَالْبَغْضَاءَ فِي الْخَمْرِ وَالْمَيْسِرِ وَيَصُدَّكُمْ عَنْ
ذِكْرِ اللَّهِ وَعَنِ الصَّلَاةِ فَهَلْ أَنْتُمْ مُنْتَهُونَ (٩١) سورة المائدة .

أبو تمام ومذهب البديع

أبو تمام من أشهر شعراء العربية ، وهو صاحب مذهب شغل الباحثين في عصره وبعد عصره ، وأثار كثيرا من الجدل والخلاف حوله ، وهو ذلك المذهب الجديد الذي طلع به على الناس في عصره ، فمنهم من أعجب به ومضى يؤيده ويدافع عنه ، ومنهم من أنكره ورفضه وراح يهاجمه . فأبو تمام هو زعيم المذهب التجديدي في القرن الثالث ، وهو المذهب الذي يضعه النقاد بإزاء المذهب التقليدي الذي سار عليه معاصره وتلميذه البحتري . فالشاعران يمثلان مذهبين مختلفين في تاريخ الشعر العربي ، وهو اختلاف يرجع إلى اختلاف الشاعرين حول المفهوم الفني للشعر ، فأبو تمام يمثل مذهب الخروج على عمود الشعر والتحرر من تلك التقاليد الفنية الموروثة التي تلقاها الشعراء عن الشعر القديم ، في حين يمثل مذهب البحتري التمسك بعمود الشعر والحرص عليه واحتذاء تلك النماذج الفنية الموروثة .

وأبو تمام هو : حبيب بن أوس الطائي ولد في قرية جاسم قرب دمشق واختلف في سنة ولادته كما امتد هذا الاختلاف إلى سنة وفاته ، عمل في نشأته في حياكة الثياب و في سقاية الماء للمصلين عند المساجد ، كما كان يختلف إلى حلقات العلم في المساجد وعندما شب كان كثير الترحال فرحل إلى حمص ثم مصر ثم عاد إلى دمشق ثم بلاد ما بين النهرين ثم اتجه إلى بغداد وقربه المعتصم وصار شاعره المقدم وتولى بريد الموصل حتى مات .

مقومات عبقريته الأدبية :

١ عامل فطري : يتمثل في الموهبة والذكاء النادر ، فقد كان أبو تمام شاعرا موهوبا بالفطرة ، يُقال أنه حين مدح المعتصم بسينيته التي يقول فيها :

إقدام عمرو في سماحة حاتم في حلم أحنف في ذكاء إياس

اعترض الكندي كيف تشبه أمير المؤمنين بأعراب أجلاف فأطرق قليلا ثم رفع رأسه ، فقال:

لا تنكروا ضربي له من دونه مثل شرودا في الندى والباس

فالله قد ضرب الأقل لنوره مثلا من المشكاة والنبراس

ثم تابع إنشاد القصيدة ولما أخذت القصيدة من يده لم يجدوا فيها هذين البيتين فقال أحد الفلاسفة إن هذا الفتى يموت شابا لأن ذكائه ينحت عمره كما يأكل السيف الصقيل غمده.

٢ عوامل مكتسبة :

تتمثل في الثقافة المنوعة والرحلات المتعددة فقد كان متشربا لثقافة عصره بكل أطيافها الفكرية ، فثقافته ثقافة واسعة ، لذا وصفه القدماء بالشاعر العالم ، فهو يستغل الثقافات المختلفة التي اتصل بها ويعتمد عليها في شعره، ومن هنا أصبح شعره مستغلق في بعض جوانبه على أصحاب الثقافة السطحية ، وأصبح يحتاج في فهمه إلى مثل ثقافته الواسعة حتى يسهل فهمه وتذوقه والنفاذ إلى أغواره البعيدة .

المذهب الفني لأبي تمام:

يمتاز أبو تمام عن شعراء عصره بأنه صاحب مذهب جديد في الشعر، يقوم على الغوص في المعاني البعيدة التي لا تُدرك إلا بإعمال الذهن، والاعتماد على الفلسفة والمنطق في عرض الأفكار وإلباسها صوراً من التشبيهات والاستعارات والكنائيات. ويقوم فن أبي تمام على الصنعة البديعية. و لهذا تكثر المحسنات البديعية في شعره كما تكثر الألفاظ الغريبة. يصف الحسن بن بشر الأمدي صاحب كتاب الموازنة شعر أبي تمام بأنه "لا يشبه أشعار الأوائل ولا على طريقتهم" بأنه مليء بـ "المعاني الغامضة التي تستخرج بالغوص والفكرة"

و يرجع اختلاف مذهب أبي تمام الشعري عن غيره إلى قضيتين فئيتين. الأولى هي اختلاف مفهوم الشعر عنده عن مفهوم الشعر عند غيره. و الثانية هي اختلاف تصوره للغاية من الشعر.

- مفهوم الشعر عند أبي تمام:

أبو تمام يفهم الشعر على أنه صناعة عقلية، يمتزج فيها العقل بالشعور. أو الفكر بالعاطفة. فالشعر لديه يستمد مادته من الفكر كما يستمدها من العاطفة. و في سبيل تحقيق هذه المزاجية فإنه يحمل اللغة أكثر مما تطيق مما يصعب فهمها على أصحاب الثقافة العامة الذين لم يصلوا إلى مستواه.

- تصوره للغاية من الشعر:

كان أبو تمام مؤمناً بأن الشعر للخاصة لا للعامة، و الخاصة عنده ليسوا أفراد الطبقة الاجتماعية المترفة إنما هم الطبقة المثقفة المستنيرة.

و على أساس هاتين الفكرتين خرج أبو تمام بمذهب فني جديد وصفه النقاد بأنه يميل إلى الدقة و فلسفة الكلام و اهتموه بأنه يقول مالا يفهم. و على الرغم من هذا فشعره يمتاز بقوة العاطفة و حرارتها، مما جعل شعره محبباً إلى النفوس. لكنه يتفاوت سموً و دنواً مما حدا بتلميذه البحتري أن يقول: "جيد أبي تمام خير من جيدي، و رديني خير من رديئه". و قد نشأت دراسات كثيرة تناولت فن أبي تمام في أغراض شعره أو مذهبه الأدبي أو في مؤلفاته أو في الحركة النقدية التي تبلورت حوله.

و قد دافع أبو تمام عن مذهبه الفني ، و من القصص التي تُذكر في هذا الباب أن البعض عابوا على أبي تمام وسخروا من قوله:

لا تسقني ماء الملام فإنني صب قد استعذبت ماء بكائي.

فأخذ أحدهم وعاء وذهب يطلب من أبي تمام بسخرية قطرات من (ماء الملام) فكان أبو تمام ذكياً فطلب منه أن يأتيه بريشة من (جناح الذل) قبل أن يعطيه قطرات من ماء الملام، و في هذا إشارة إلى قوله تعالى: (واخفض لهما جناح الذل من الرحمة).

قصيدة فتح عمورية

إضاءة تاريخية عن فتح عمورية :

قال أبو تمام هذه القصيدة في مدح المعتصم ، وذكر فيها انتصاره على الروم في موقعة عمورية سنة ٢٢٣هـ ، وكان الشاعر فيها يصف ما رأى بعينه ويجعل شعره خادما للواقع من غير تزييف له ، فتكاد تكون كل حوادث هذا الفتح وارده في القصيدة، ذكر ابن الأثير في حوادث ٢٢٢ هـ أنه: ظهر عن يسار القبله كوكب ، فبقي يُرى أربعين ليلة وله شبه الذنب ، وكان أول ما طلع نحو الغرب، ثم رأى بعد ذلك نحو المشرق وكان طويلا جدا ، فهال الناس ذلك وعظم عليهم ، وفي سنة ٢٢٣ هـ خرج توفيل بن ميخائيل ملك الروم إلى بلاد الإسلام ، وأوقع بأهل زبطره في مئة ألف من الجنود ، فقتل من بها من الرجال وسبى الذرية والنساء ، وأغار على أهل ملطيه ، وسبى المسلمات، ومثل بمن صار في يده من المسلمين، وقطع أنوفهم وآذاهم ، وسمل أعينهم ، فخرج إليه أهل الثغور من الشام والجزيرة ، وضج الناس واستغاثوا في المساجد والديار ، ثم بلغ الخبر المعتصم فاستعظم ذلك وكبر عليه وبلغه أن امرأه صاحت وهي أسيرة في أيدي الروم بـ : " وا معتصماه " فأجاب وهو جالس : " لبيك لبيك " ، ونهض من ساعته فصاح في قصره: "النفير النفير" ، وسأل المعتصم أي بلاد الروم أمنع وأحصن، فقيل: عمورية ، لم يعرض لها أحد منذ كان الإسلام ، وهي عين النصرانية، وهي أشرف عندهم من القسطنطينية فسار المعتصم بجيشه ، وقد تجهز بالسلاح والعدة ، وكان المنجمون قد زعموا أنهم يجدون في كتبهم أن هذه المدينة لا تفتح إلا بعد نضج التين أو العنب ، فلم يسمع لهم وسار نحو المدينة ووصل إلى أنقرة ، وقد فر من فيها فدمر من وجد في طريقه ، حتى وصل عمورية وحاصرها ، فلما رأى ملك الروم حصار عمورية حاول أن يدفع الحرب بالمال ، وأن يعيد بناء زبطرة ، فرفض المعتصم ، وطال الحصار ، حتى أقبل رجل من المسلمين قد أسروه الروم فتنصر فلما رأى المسلمين خرج إليهم ، وأخبر المعتصم عن موضع ضعيف في السور ، فضرب المسلمون تلك الناحية بالمنجنيق، حتى تصدع السور بين البرجين ودخل المسلمون المدينة ، وآخذوا الروح بالسيف ، ونالوا الأسرى والسبيا ، ثم أمر المعتصم بعمورية فهدمت وأحرقت ، وكان نزوله لست خلون من رمضان، وأقام عليها ٥٥ يوما ثم قفل راجعا.

شرح القصيدة :

السَّيْفُ أَصْدَقُ أَنْبَاءٍ مِنَ الْكُتُبِ فِي حَدِّهِ الْحَدُّ بَيْنَ الْجِدِّ وَاللَّعِبِ

بدأ الشاعر بالسيف من أجل الدليل على القوة بالقوة أصدق من كتب المنجمين فالسيف الذي هو أداة القوة فاصل بين الجد والهزل فالسيف تمجيد للقوة وإضعاف لزيغ ويظهر في هذا البيت أن الشاعر لم يبدأ بما كان عليه النهج العربي القديم من المقدمة الطللية والرحلة ومن ثم الغرض الأساسي لكنه بدأ بالغرض الأساسي مباشرة وربما يعود ذلك إلى انفعال الشاعر النفسي الذي جعله يبدأ به وكذلك أراد الشاعر البدء بالمنجمين لأنهم كانوا أمام اضطراب نفسي أصدقون أقوال المنجمين أم يكذبونهم وهل ستقع بهم الواقعة أم لا لذلك بدء بهم لما أحدثوه من رجفة وتخذييل داخل البلاد الإسلامية.

وقد ظهر في هذا البيت نوع من ألوان البديع في قوله ... "حده الحد" جناس و"الجد واللعب" طباق

بيض الصَّفَائِحِ لَا سُودَ الصَّحَائِفِ فِي مُتُونِهِنَّ جَلَاءَ الشُّكِّ وَالرَّيْبِ

يعيد الشاعر في هذا البيت المعنى الذي بدأه فهو يقول أن الحديد العريضة لسيف غير الكتب لأن في متن السيف رفع للغطاء وكشف للحق عن الباطل ففيه جلاء لشك وهو أقل مرتبة من الريب ولريب هو أكثر من الشك وعندما كرر المعنى أراد تأكيد المعنى الذي وصل إليه ، ويظهر اتصال وثيق بين " في حده الحد بين الجد واللعب " وبين قوله " في متونها جلاء الشك والريب "

وَالْعِلْمُ فِي شُهْبِ الْأَرْمَاحِ لِامِعَةِ بَيْنَ الْخَمِيسِينَ لِأَفِي السَّبْعَةِ الشُّهْبِ

يرد الشاعر في هذا البيت على المنجمين ولكنه قدم الظفر على حكمهم مع أن حكمهم صدر قبل النصر في المعركة وهو يقول أن الحقيقة مع العلم اليقين في أسنة الأرماع وشبه الأسنة بالشهب في معانها وهذه الصورة هي في داخل الجيش وهي صورة لمعان السيوف بالحقيقة لا في الشهب السبعة وهي الطوالع

أَيْنَ الرَّوَايَةِ بَلْ أَيْنَ النُّجُومِ وَمَا صَاغُوهُ مِنْ زُخْرُفٍ فِيهَا وَمَنْ كَذَبَ

في هذا البيت يستخف الشاعر بالمنجمين ويقول لهم: أين الراوية التي قلموها وأين النجوم التي ادعيتن بها وما صغتموه من كذب وتلفيق أين ؟ وقد كان استفهاما لغرض الاستخفاف والسخرية والتحقير.

تَخْرُصًا وَأَحَادِيثًا مُلْفَقَةً لَيْسَتْ بِنَبْعٍ إِذَا عُدَّتْ وَلَا غَرْبٍ

تخرصا : كذبا

يكمل الشاعر ما بدأه في البيت " ٤ " حين يقول ما صاغوه إنما هو تخرص و كذب و تلفيق ، و من بعد ذلك يأتي بعبارة مجازية في قوله النبع إذا عدت ولا غرب فإنه يقول أن كلامهم غير مفيد ليس مثل شجر النبع الذي فيه قوة أو شجر الغرب الذي فيه ضعف فهو كلام غير مفيد مثل الشجر الذي لا قوة فيه ولا ضعف.

عَجَابًا زَعَمُوا أَيَّامَ مُجْفَلَةٍ عَنْهُمْ فِي صَفَرِ الْأَصْفَارِ أَوْ رَجَبِ

يتعجب الشاعر من كلامهم الذي زعموه في أن الأيام تهرب وتجفل من شهر صفر ومن رجب. بمعنى أن المصائب تنزل في هذين الشهرين وهذا من أجل أن يجبطوا المسلمين وهذا هو أول زعمهم .

وَخَوْفُوا النَّاسَ مِنْ دَهْيَاءَ مُظْلَمَةٍ إِذَا بَدَا الْكَوْكَبُ الْغُرْبِيُّ ذُو الذَّنْبِ

دهياء : مصيبة عظيمة ثم زعموا أيضا -

وهو زعمهم الثاني - أن مصيبة سوداء مظلمة سوف تقع عندما يظهر الكوكب الغربي المذنب فخوفوا الناس بمزاعمهم وقد جاءت فكرتهم هذه من الكوكب من أجل أن يمنعوا من الخروج فجاء الطائي وهو " أبو تمام " فقلب الحكم عليهم.

وَصَيَّرُوا الْأَبْرَجَ الْعُلْيَا مُرْتَبَةً مَا كَانَ مُنْقَلِبًا أَوْ غَيْرَ مُنْقَلِبٍ

جاء الشاعر بهذا البيت في مساق السخرية و الاستهزاء والتحقير من شأن المنجمين مع الكواكب سواء كانت ثابتة أو مقلبة وتدور حين يتقولون على الكواكب.

يَقْضُونَ بِالْأَمْرِ عَنْهَا وَهِيَ غَافِلَةٌ مَا دَارَ فِي فَلَكٍ مِنْهَا وَفِي قُطْبِ

يقول أنهم يقضون بالأمر عن هذه الكواكب وهي غافلة واو الحال هنا جاء ليدل على حال هذه الكواكب الغافلة وهذا يعتبر من الكذب والزور عليها .

لَوْ بَيَّنْتَ قَطَّ أَمْرًا قَبْلَ مَوْقِعِهِ لَمْ تُخَفِ مَا حَلَّ بِالْأَوْثَانِ وَالصُّلْبِ

يقول مستهزأ إذا كانت الأبراج تعلم فلماذا لم تخبركم به إذا كانت تعلم قبل ذلك وأخفت عليكم أحداث القضاء على الصلب و الأوثان وهذا هو الدليل القاطع .

الفكرة الأساسية في الأبيات السابقة: تكذيب المنجمين وتحميد القوة . وهذه الثنائية قامت على المقابلة

فَتَحُ الْفُتُوحِ تَعَالَى أَنْ يُحِيطَ بِهِ نَظْمٌ مِنَ الشَّعْرِ أَوْ نَثْرٌ مِنَ الْخُطْبِ

ينشد الشاعر النصر بقوله فتح الفتوح فهو في أعلى منزلة فلا يستطيع بيان أن يحيط بعظمته سواء شعراً أو نثراً فاللسان والقلم يعجزان عن الإحاطة بعظمة هذا الفتح وهذا يدل على أنه امتلاً بروح النصر فعجز عنه مع أنه من سادة البيان ، فيه مقابله في نظم من الشعر ونثر من الخطب .

فَتَحُّ تَفْتَحُ أَبْوَابُ السَّمَاءِ لَهُ وَتَبْرُزُ الْأَرْضُ فِي أَثْوَابِهَا الْقُشْبِ

تبرز : تظهر . القشب : المزخرفة .

يقول الشاعر أن كل من في الكون يحتفلون بهذا النصر وعبر عن الكون بالسماء و الأرض فقال : إن أبواب السماء تفتح فرحا بهذا النصر و الأرض ترتدي أجمل الثياب وهذه الثياب جديدة كأنها في يوم

عيد ، وجعل الأرض كالمرأة التي ترتدي ثيابا جديدة على سبيل الاستعارة المكنية ، وفيه طباق بين السماء و الأرض.

يَا يَوْمَ وَقَعَةَ عَمُورِيَّةَ أَنْصَرَفَتْ مِنْكَ الْمَنَى حُفْلًا مَعْسُولَةَ الْحَلَبِ

في هذا البيت يخاطب الشاعر يوم عمورية فكأنه إنسان ينادى فيقول له : كانت هناك أمنيات النصر و الغنائم والتنكيل بالأعداء في قلوب المسلمين ، فتحققت هذه الأمنيات بالنصر الحلو وعبر عن النصر الحلو بصوره من البادية وهي صورة ضرع الناقة المليء بالحليب وهذا الحليب في طعمه حلاوة تشبه حلاوة العسل

أَبَقِيَتْ جِدَّ بَنِي الْإِسْلَامِ فِي صَعْدٍ وَالْمُشْرِكِينَ وَدَارَ الشَّرْكِ فِي صَبِّ

جد : حظ . صبب : صعود .

الأمنية الأولى التي تحققت بهذا النصر هي إبقاء حظ بني الإسلام في صعود وبني المشركين في انحدار وكل هذا عن طريق سواعد المسلمين الأقوياء ويظهر في هذا البيت نشوته بالنصر وذلك لأنه لم يفصل ولكنه أجمل الحدث ككل. ويظهر في هذا البيت مقابله بين "بني الإسلام في صعد" و "المشركين ودار الشرك في صبب"

أُمَّ لَهُمْ لَوْ رَجَوْا أَنْ تُفْتَدَى جَعَلُوا فِدَاءَهَا كُلَّ أُمَّ مِنْهُمْ وَأَبِ

في هذا البيت عاد إلى التفصيل فأخرج عمورية بصورة المرأة فهي مثل الأم لمن سكن فيها فهي أصلهم ولغلائها يفتدونها بأمهاثم وآبائهم وذلك لكونها في نفوسهم الأم الأصلية .

وَبِرْزَةِ الْوَجْهِ قَدْ أَعَيْتَ رِيَاضَتُهَا كِسْرَى وَصَدَّتْ صُدُودًا عَنْ أَبِي كَرِبِ

في هذا البيت يقول الشاعر أنها " أي عمورية" مثل المرأة التي تبرز وجهها وتكشفه نتيجة لثقتها من منزلتها ومناعة قومها فهي واثقة من أن يدا لن تمتد إليها ما دام قومها في هذه المناعة فكأنه يشير إلى موقع عمورية الجغرافي في كونها منطقة عالية ومنيعة في نفس الوقت بحصونها وجبالها ورجالها، ثم عبر عنها بأنها مثل الفرس الجموح التي أتعبت كسرى فلم يستطع ترويضها أو الوصول إليها وكذلك فإن هذه الفرس صدت وأعرضت بقوة و صلف عن أبي كرب اليماني الأصل ، في هذا البيت إظهار لتاريخ المدينة .

بِكْرٍ فَمَا افْتَرَعَتْهَا كَفُّ حَادِثَةٍ وَلَا تَرَقَّتْ إِلَيْهَا هِمَّةُ النُّوبِ
النوب : المصائب .

في هذا البيت يلح الشاعر على صورة المرأة في قوله بكر فجعل عمورية مثل المرأة البكر التي لم يمسهأ أحد من المجرمين فعبر عن المجرمين بحادثة ومن ثم يقول أن مصائب الدهر رغم همتها إلا أنها لم تبلغها ولم ترتقي إليها "أي : إلى عمورية "

مِنْ عَهْدِ إِسْكَندَرٍ أَوْ قَبْلَ ذَلِكَ قَدْ شَابَتْ نَوَاصِي اللَّيَالِي وَهِيَ لَمْ تَشِبِ
في هذا البيت تظهر لنا لمحة تاريخية عن هذه المدينة بدأها الشاعر بإسكندر المقدوني ثم استرجع وقال بل قبل عهده ثم بدأ تشخيص الليالي فقال بأنها مثل الإنسان شابت مقدمتها ولكن في المقابل لم تشب عمورية وهنا يظهر لنا تشخيص آخر حين جعل عمورية أيضا مثل المرأة التي لم تشيب بعد .
حَتَّى إِذَا مَخَّضَ اللَّهُ السِّنِينَ لَهَا مَخْضَ الْبَحِيلَةِ كَانَتْ زُبْدَةَ الْحِقْبِ
الحقب : الأزمان الطوال .

بدأ الشاعر بيته هذا بـ "حتى " التي تفيد الغاية وفي هذا البيت استعارة لم يسبق إليها حيث استعار للحياة الرغيدة والمهانة صورة من حياة البادية فهو يقول أن الله تعالى قد مخض السنين حتى جاء بعمورية وهذه صورة أعابها عليه النقاد فقد قصد أنها مكتره بالخير الوفير أما هذه الصورة فتقابلها صورة المرأة البخيلة التي تمخض الزبدة فهي من شدة بخلها تكونت زبدة وافرة خلال الزمن الطويل الذي مخضت فيه .

أَتَتْهُمْ الْكُرْبَةُ السَّوْدَاءُ سَادِرَةً مِنْهَا وَكَانَ اسْمُهَا فَرَاجَةَ الْكُرْبِ
في هذا البيت يظهر أشياء من الواقعة حين شبه مجيء الجيش الذي يريد فتح عمورية بالكربة السوداء التي سدت العين بظلمتها وهذه الكربة جاءت إلى عمورية بعد أن كانت فراجة الكرب في الماضي فكأنه يهزء و يسخر من هذه الأقوال التي قيل فيها بأنها فراجة الكرب، فهو يتدرج في الأبيات لكي يعبر التاريخ وفي هذا البيت تظهر علامة أسلوبية تدل على الفتح فها هي نذر الشؤم تتوارد على عمورية

جَرَى لَهَا الْفَأَلُ بَرَحًا يَوْمَ أَنْقَرَةَ إِذْ غُودِرَتْ وَحَشَّةَ السَّاحَاتِ وَالرَّحَبِ

الفأل : التفاؤل . برحا : شؤما .

يقول الشاعر أن الأمر الحسن انقلب إلى الشؤم على عمورية منذ أن فر أهل أنقرة وتركو الساحات موحشة وهذا من بوادر الشؤم لأنه ما وقع في أنقرة سوف يقع بعمورية ويظهر هنا طباق بين الفأل وبرحا .

لَمَّا رَأَتْ أُخْتَهَا بِالْأَمْسِ قَدْ خَرِبَتْ كَأَنَّ الْخَرَابُ لَهَا أَعْدَى مِنَ الْجَرَبِ

في هذا البيت صورة رائعة حين قال أن عمورية لما رأت أنقرة قد خربت انعدت منها فجعل الحرب مثل المرض المعدي المنتشر .

كَمْ بَيْنَ حَيْطَانِهَا مِنْ فَارِسٍ بَطَلٍ قَانِي الذَّوَابِ مِنْ آنِي دَمٍ سَرِبِ

يقول الشاعر بأنه رأى جثث الفرسان الأبطال بين حيطان المدينة قد تناثرت هنا وهناك وشعور هؤلاء الفرسان مليئة بالدماء الحارة والسائلة لقرب عهد قتلهم، ويظهر في هذا البيت قفزة من البداية على النهاية لنشوته بمقتل الفرسان الأبطال الساجين في بركة من الدماء.

بِسِنَّةِ السَّيْفِ وَالْحِنَاءِ مِنْ دَمِهِ لَا سِنَّةَ الدِّينِ وَالْإِسْلَامِ مُخْتَضِبِ

يقول الشاعر أن الاحمرار الذي يسبغهم ليس من سنة الدين وإنما هي من سنة السيف وحده وهذه المقارنة جاءت من أن الحناء سنة في الدين. وتظهر في هذه الصورة سخرية وتشفي جاءت من فرحته ونشوته بالنصر.

لَقَدْ تَرَكْتَ أَمِيرَ الْمُؤْمِنِينَ بِهَا لِلنَّارِ يَوْمًا ذَلِيلَ الصَّخْرِ وَالْحَشَبِ

في هذا البيت حقيقة تاريخية أثبتها الشاعر لأنه شاهد عيان وهي ترك المسلمين لعمورية بعد إحراقها وقد تطرق الشاعر لوصف النار من هذا البيت ٢٥ إلى ٢٩ ويظهر في وصفها تقابل النور والظلام. ففي هذا البيت ينادي الشاعر أمير المؤمنين بحرف نداء محذوف ويقول له إنك تركتها والنار تأكل في صخرها وخشبها بذل واضح للعيان.

غَادَرَتْ فِيهَا بِهِيمَ اللَّيْلِ وَهُوَ ضُحَى يَشْلُهُ وَسَطَهَا صُبْحٌ مِنَ اللَّهَبِ

ثم يقول إنك يا أمير المؤمنين غادرتما والليل الشديد السواد قد أضحى مضيئا ثم ركز على وسط النار وقال بأنه أشد نورا فكأنه صبح في وسط هذا اللهب وهذا الصبح يطرد الليل البهيم وفيه طباق بين الترك والطرده من خلال قوله : "غادرت و يشله " وكذلك بين ظلمة الليل والصبح .

حَتَّى كَأَنَّ جَلَابِيبَ الدُّجَى رَغِبَتْ عَنْ لَوْنِهَا وَكَأَنَّ الشَّمْسَ لَمْ تَغِبْ

يستغرب الشاعر وهو يقول أن الليل مثل إنسان رغب عن جلابيبه وغير لونها بعد أن كان اسودا حالكا أصبح مضيئا باهرا حتى كأن هذا الليل من شدة نوره مثل النهار الذي شمسه لم تغيب.

فهو يتدرج في وصف النار من صبح في البيت ٢٦ إلى لون رداء مختلف إلى شمس واضحة في البيت ٢٧

ضَوْءٌ مِنَ النَّارِ وَالظُّلْمَاءُ عَاكِفَةٌ وَظُلْمَةٌ مِنْ دُخَانٍ فِي ضُحَى شَحْبِ

يتابع الشاعر وصفه للنار فيقول في الشطر الأول أن ضوء النار في الليل مضيء والظلماء عاكفة فيظهر النور مقابل الظلام أما في الشطر الثاني فيأتي بالعكس حيث يقول أنه في النهار تظهر ظلمة من الدخان المتصاعد الذي يحجب الشمس فكأنه ليل بهيم فتظهر الظلمة ويقابلها النور في هذا الشطر ففيه صورتان متضادتان بين وصف الحريق في الليل والنهار.

فَالشَّمْسُ طَالِعَةٌ مِنْ ذَا وَقَدْ أَفَلَتْ وَالشَّمْسُ وَاجِبَةٌ مِنْ ذَا وَلَمْ تَجِبْ

وفي هذا البيت متابعة لوصف الحريق فهو يقول أن النار في قوتها مثل الشمس مع أن الشمس قد غربت وأما الصورة الأخرى فهي صورة الشمس الظاهرة في النهار لكن من دخان الحريق لم تعد ظاهرة وفي هذا البيت تظهر ثنائية النور والظلام وفيه مقابلة بين الشطرين .

تَصْرَحَ الدَّهْرُ تَصْرِيحَ الْعَمَامِ لَهَا عَنْ يَوْمٍ هَبَّ جَاءَ مِنْهَا طَاهِرٍ جُنْبِ

تصرح : تكشف .

في هذا البيت عاد الشاعر لوصف المدينة بعد وصف الحريق وهنا دار النقاش بين النقاد خلافا على هذه الأبيات من ٣٠ إلى ٣٥ فهو يقول أن هذه المدينة كان غائبا عنها الوهم ثم تكشف لها عن يوم هائج وشبه تكشف الدهر لها بتكشاف السماء عن الغمام وفي هذا اليوم كان الطهر بنصر المسلمين و الجنب بسبي النساء.

لَمْ تَطَّلِعِ الشَّمْسُ فِيهِ يَوْمَ ذَلِكَ عَلَى بَانَ بِأَهْلِ وَلَمْ تَعْرُبْ عَلَى عَزَبِ

يلح الشاعر في هذا البيت على الطهر والجنب في ذلك اليوم فقد قتل كل متزوج من النصارى ولم يبق من المسلمين عازب من خلال السبايا اللواتي حصلوا عليهن من هذه المعركة .

مَا رُبِعُ مَيَّةَ مَعْمُورًا يُطِيفُ بِهِ غَيْلَانُ أَبْهَى رُبِيٍّ مِنْ رُبْعِهَا الْخَرْبِ

في هذا البيت صورة أعابها النقاد على أبي التمام وهي صورة غيلان " ذو الرمة " الذي يطوف بديار "ميه" الساكنة بها ، وكله شوق إليها وحب إلى ديارها ، التي قابلها بصورة الديار الخربة في عمورية وقال بأن هذه الديار الخربة أحب إليه وأهى في عينيه من ديار يسكنها الحب و الاشتياق .

وَلَا الْخُدُودُ وَقَدْ أَدْمِينُ مِنْ خَجَلٍ أَشْهَى إِلَى نَاطِرِي مِنْ خَدِّهَا التَّرْبِ

ثم يقول في هذا البيت أن الاحمرار الذي يجري في خد المرأة خجلاً ليس عندي بشيء أمام خد عمورية المعفر بالتراب فخدتها المعفر بالتراب ذلاً أشهى عندي من خد تلك المرأة الخجلة ذات الخدود المدمية .

سَمَاجَةٌ غَنِيَتْ مَنَا الْعُيُونِ بِهَا عَنْ كُلِّ حُسْنٍ بَدَأَ أَوْ مَنْظَرَ عَجَبِ

يقول: أن هذا القبح ظهر على أرض عمورية من الخراب و الدمار والقتل قد أغنى عيوننا عن كل مظهر حسن ومنظر جميل في العالم كله ، وقد قال هذه الأبيات الثلاثة نتيجة للمحرك النفسي حيث سوغ الجمع بين أشياء لا مسوغ لها وكذلك لرغبته العارمة في التشفي .

وَحُسْنٌ مُنْقَلَبٌ تَبْقَى عَوَاقِبُهُ جَاءَتْ بِشَاشْتُهُ مِنْ سُوءٍ مُنْقَلَبِ

يقول الشاعر : أن حسن منقلب المسلمين ونصرهم ظهر من سوء منقلب المشركين وهزيمتهم ، فقد ظهر حسن المسلمين و منقلبهم وظهرت نتائجه وجاءت فرحته وبشاشته من خلال سوء منقلب المشركين .

لَوْ يَعْلَمُ الْكُفْرُ كَمْ مِنْ أَعْصُرٍ كَمَنْتَ لَهُ الْعَوَاقِبُ بَيْنَ السُّمْرِ وَالْقُضْبِ

كمنت : اختبأت ، العواقب : النتائج ، السمر : الرماح ، القضب : السيوف
هذا البيت ختام لوصف الخراب و الدمار الذي أصاب عمورية فهو ختم المصاب الجلل بالصيد الذي ينتظر فريسته والفريسة هي الكفر الموجود في عمورية على مر العصور وفي قوله أعصر تذكر بالناحية التاريخية وبسلامة المدينة وصدودها عن الذين حاولوا الوصول إليها وهذه الفترة هي فترة كمون أما في قوله العواقب فهو يقصد الصيد والسمر القضب يقصد بها الأسلحة " فيقصد أن المعتصم بالله هو الصيد الذي أفترس الكفر في عمورية بأسلحته . "

تَدْبِيرُ مُعْتَصِمٍ بِاللَّهِ مُنْتَقِمٍ لِلَّهِ مُرْتَقِبٍ فِي اللَّهِ مُرْتَغِبِ

هذا أول بيت في مدح المعتصم بالله وهو الغرض الأساسي يقول الشاعر : أن الذي دبر و أعد الجيش هو المعتصم بالله وفي هذا البيت يصف الشاعر المدح بإضافته إلى الله فهو منتقم لله عز وجل لأنه لا

ينتقم لنفسه فهو ينتقم لدين الإسلام لأن الإساءة كانت للإسلام ، كذلك هو يراقب الله عز وجل في عمله فهو لا ينافق ، و هو راغب إلى الله تعالى وهذا يذكرنا بما عرضه الإمبراطور من مال على الخليفة فرفضه لأنه راغب إلى الله تعالى . في هذا البيت يظهر الشاعر العمق الديني عند الممدوح وذلك عندما جعل الفتح لصالح الدين وليس لصالح الممدوح .

وَمُطْعِمِ النَّصْرِ لَمْ تَكْهَمْ أَسْنَتُهُ يَوْمًا وَلَا حُجِبَتْ عَنْ رُوحِ مُحْتَجِبِ

مطعم النصر هو " أصل في الصيد يقال فلان مطعم من الصيد إذا كان مرزوقا منه " وهنا يقصد الممدوح بأنه معتاد على النصر كما يتعود الصياد على أن يطعم من لحم الصيد فإنه لم يعلو أسنته شيء من الكهم فهي مستعدة للحرب ومشرفة لها ولا توجد روح متحجبة عن سلاح المعتصم، وفي ذلك إشارة إلى الذين تحصنوا بعمورية فإن الخليفة استطاع الوصول إليهم ، حينما دخلها وقتل وأحرق ما فيها.

لَمْ يَغْزُ قَوْمًا، وَلَمْ يَنْهَدْ إِلَى بَلَدٍ إِلَّا تَقَدَّمَ جَيْشٌ مِنَ الرَّعْبِ

لم ينهد : لم ينهض

يقول الشاعر أنه لم يغز الممدوح قوماً ولم ينهض إلى بلد إلا مقدمة جيشين أولهما جيشه الذي يكون فيه والآخر جيش من الرعب والخوف يسبقهم إلى العدو. وفي هذا البيت إشارة إلى الدعم النفسي للمسلمين بما يلقيه جيشهم في نفوس العدو من رعب وخوف.

والجيشين أحدهما حقيقي وهو جيشه والأخر معنوي وهو جيش الرعب والخوف.

لَوْ لَمْ يَقْدُ جَحْفَلًا، يَوْمَ الْوَغَى، لَعَدَا مِنْ نَفْسِهِ، وَحَدَّهَا، فِي جَحْفَلٍ لَجِبِ

جحفلا : جيشا الوغى : الحرب المستعرة لجب : صوت مرتفع

يقول الشاعر : أن الممدوح من ضخامة أمره كأنه جيشا وذلك يعظم شأنه فإنه إن لم يقد جيشا يوم الحرب فإنه يستحيل جيشا لوحده في يوم كثير الصخب لعظمة شأنه ومكانته، وفي هذا البيت تظهر صورة صوتية في قوله " لجب " .

من البيت ٣٧ إلى ٤٠ يتكلم الشاعر فيها عن الممدوح بأسلوب الغائب.

رَمَى بِكَ اللَّهُ بُرْجِيهَا فَهَدَمَهَا وَلَوْ رَمَى بِكَ غَيْرُ اللَّهِ لَمْ يُصِبِ

في هذا البيت التفاتة من أسلوب الغائب إلى أسلوب المخاطب وذلك سرين هما :

- سر عام هو إيقاظ المتكلم وشد انتباهه وتلوين الخطاب .

- سر خاص هو أنه بعد ما أثنى على الخليفة بما يليق به وصل إلى حضرته وخاطبه بضمير المخاطب لذلك استحق أن يخاطبه بضمير المباشر.

لكن الشاعر عندما التفت إليه لم يعظمه ويضخمه بل باشر بذكر الله وقال : إن الله رمى بك فهدمت برجى عمورية ولو رمى بك غير الله عز وجل فإنه لن يصيب وهذا دليل على سلامة دينه والمقصود أنه لو قاتل لغير دين الله فإنه لن ينتصر ولكنه عندما قاتل لكي ينتصر لدين الله تعالى كان له النصر. وفي قول الشاعر " برجيتها " إشارة إلى حادثة البرجين والثغر الذي دهم جاءهم من داخل المدينة عليه.

البحثري والاتجاه المحافظ

إذا كان أبو تمام يمثل المذهب الجديد في العصر العباسي ، وإذا كان النقاد والباحثون يرون فيه رأس مدرسة البديع في هذا العصر ، والقمة التي وصلت إليها بعد أن بدأ الطريق مسلم بن الوليد ، فإن البحتري يمثل المذهب التقليدي ، ويعد عند النقاد والباحثين رأس مدرسة المحافظين في الشعر العباسي ، والقمة التي وصلت إليها هذه المدرسة في هذا العصر.

وقد شغل الخلاف بين المدرستين اللتين يمثلهما هذان الشاعران الكبيران أذهان الناس في عصرهما ، كما شغل النقاد والباحثين في تاريخ الشعر العربي بعد هذا العصر . ويقوم هذا الخلاف بين النقاد القدماء على أساس فكرة "عمود الشعر" ، فأبو تمام يمثل الخروج على عمود الشعر والثورة عليه ، والبحتري يمثل المحافظة عليه والتمسك به .

والمراد بعمود الشعر التقاليد الفنية التي ورثها الشعراء المحدثون من الشعر القديم ، أو مجموعة الأصول الفنية التي كان الشعراء القدماء يقيمون شعرهم على أساسها ، والتي كان النقاد المحافظون في العصر العباسي يرون أن من الضروري أن يحرص الشعراء المعاصرون عليها ، لأنها أصول موروثة عن أولئك الرواد الأوائل الذين وضعوا الأسس الأولى للشعر العربي . ومن هنا كان الخارجون على هذه التقاليد من أمثال أبو تمام يعدون عندهم خارجون على عمود الشعر، أما المتمسكون بهذه التقاليد المحافظون عليها من أمثال البحتري فإنهم يمثلون المدرسة المقابلة المحافظة على عمود الشعر .

والبحتري شاعر عربي ، لا يشك أحد في صحة عروبته ، فهو من صميم طيئ ، ويكنى بأبي عبادة ، و يعرف بالوليد بن عبدالله بن يحيى البحتري ، ولد بمنج عام ٢٠٦هـ (على أرجح الروايات) ، وقضى أيام صباه الأولى في بادية منج بين العرب الطائيين الذين كانوا منتشرين بها ، وليس من شك في أن نشأته المبكرة بين البدو في هذه البادية كان لها أثر واضح في اتجاهاته الفنية ، ولعلها كانت أحد العوامل التي اتجهت به إلى الحرص على أساليب العرب ، والمحافظة على مذاهبهم الفنية التقليدية .

نشأ البحتري نشأة فقيرة ، وأخذت موهبته الفنية تتفتح منذ وقت مبكر من حياته ، فبدأها بامتداح الباعة المتجولين أمام مسجد منج ، ولكن أهم حدث مرّ به البحتري في هذه الفترة الأولى من حياته هو اتصاله بأبي تمام ، الذي كان شاعرا مشهورا ، وكان له مجلس في حمص يجلس فيه ، ويجتمع إليه شباب الشعراء والأدباء ليستمعوا إلى شعره ، ويعرضوا عليه أعمالهم الفنية ، ويتلقوا منه التوجيهات ، وعن ذلك يقول البحتري : كان أول أمري في الشعر ونباهتي أن صرت إلى أبي تمام وهو بجمص فعرضت عليه شعري — وكان الشعراء يعرضون عليه شعرهم — فأقبل علي وترك سائر من حضر فلما تفرقوا ، قال لي : " أنت أشعر من أنشدني ، فكيف بالله حالك ؟" فشكوت إليه حالي ، فكتب إلى أهل مَعْرَةَ النُّعْمَان ، وشهد لي بالخذق في الشعر وقال لي : " امتدحهم " فصرت إليهم فأكرموني بكتابه ، ووظفوا لي أربعة آلاف درهم ، فكان أول مال أصبته.

وقضى البحتري فترة من حياته في معرة النعمان ، ثم رحل إلى العراق حاضرة الخلافة ومطمع الشعراء الطامحين في الغنى والثراء . وفي طريقه إلى العراق نزل بكثير من الأسر الطائية في الشام ، ومدح رؤساءها ونال جوائزهم ، ثم انتهى به المطاف إلى بغداد ، فاتصل بسادتها وقوادها وأمرائها ، ثم تحقق له أخيراً أمله الذي كان يسعى إليه ، فاتصل بالقصر العباسي وأخذ يمدح خلفاءه .

وقد عاصر البحتري سبعة من الخلفاء العباسيين : الواثق والمتوكل والمنتصر والمستعين والمعتز والمهتدي والمعتمد . ولكن الخليفة الأساسي في حياته هو المتوكل الذي اتصل به اتصالاً وثيقاً ، ولازمه ملازمة طويلة استمرت أكثر من اثنتي عشرة سنة ، ولم تنقطع إلا حين قطعها الموت بمقتل المتوكل .

فلما قتل المتوكل ، واضطربت الأمور السياسية من بعده ، رحل البحتري بعيداً عن العراق إلى بلاد فارس ، ونظم هناك أشهر قصائده ، سببته الرائعة التي يصف فيها إيوان كسرى ، ويكي دولة الفرس الزائلة ، وكأتما وجد في زوال هذه الدولة وتداعي هذا الديوان مجالاً للتخفيف من أحزانه الطاحنة التي كانت تملأ نفسه بعد مصرع المتوكل ، وكأتما كان يرمز بهذه القصيدة إلى زوال ملك المتوكل وتداعي عرشه ونهب قصره بعد مصرعه .

ثم عاد البحتري بعد ذلك إلى منبج ، وقضى فيها فترة غير طويلة في عزلة بعيداً عن السياسة والسياسيين ، ولكن يبدو أنه أدرك أن هذه العزلة لن تجديه شيئاً ، وستلقي به في منطقة الظل والنسيان ، فشد رحاله مرة أخرى إلى العراق واتصل بالخلفاء من جديد .

وفي أواخر خلافة المعتمد عاد البحتري عودته الأخيرة إلى منبج ، وبقي فيها حتى أدركته المنية عام ٢٨٤هـ وهو شيخ كبير في الثمانين من عمره ، وهكذا صمت البلبل الغرّيد بعد أن ظل يصدح بألحانه العذبة الصافية أكثر من نصف قرن من الزمان .

مذهبه في الشعر :

١ يؤمن البحتري بأن الشعر لا يمكن أن يكون صناعة عقلية تقوم على المزاجية بين العقل والشعور أو الامتزاج بين الفن والثقافة كما كان هذا الأمر عند أبي تمام ، فهو يرى أن الشعر عملية فنية تعتمد على العاطفة والشعور ، ولا صلة لها بالمنطق ، ولا دخل لها بالثقافة . وقد صرح بمذهبه الفني في قوله

كَلَّفْتُمُونَا حُدُودَ مَنْطِقِكُمْ	وَالشُّعْرُ يُغْنِي عَنْ صَدَقِهِ كَذِبُهُ
وَلَمْ يَكُنْ ذُو الْقُرُوحِ يَلُـ	هَجُ بِالْمَنْطِقِ مَا نَوْعُهُ وَمَا سَبَبُهُ
وَالشُّعْرُ لَمْحٌ تَكْفِي إِشَارَتُهُ	وَلِيــــسَ بِالْهَذْرِ طَوَّلَتْ خُطْبُهُ

فالشعر عنده — كما يعلن في هذه الأبيات — تعبير عن العاطفة والشعور ولا دخل للمنطق فيه ، فهو فن جميل . وهو يؤمن بالفكرة القديمة التي ترى أن أعذب الشعر أكذبه . ومعنى هذه الفكرة في ضوء مذهب البحتري أن الشعر لا يقوم على أساس عقلي ولا يخضع لمقاييس المنطق . وهو يدافع عن هذه

الفكرة بأمرين : الأول أن رواد هذا الشعر الذين رسموا للشعر طريقه لم يكونوا يعرفون المنطق ود ضرب لهم مثلا بذي القروح (امرؤ القيس) ، والثاني أن طبيعة الشعر لا تحتمل الأدلة والبراهين ، لأن هذه العناصر العقلية من طبيعة النثر وليست من طبيعة الشعر ، فطبيعة الشعر رمزية تعتمد على اللمحة السريعة التي تسجل اللحظة الشعورية التي تومض في نفس الشاعر . ومن هذا قال أبو العلاء عبارته المشهورة : " البحترى هو الشاعر وأما أبو تمام والمتنبي فحكيمان "

٢ جقدر ما تقل العناية بالمنطق في شعر البحترى ، تشتد العناية باللفظ ، فالبحترى في كل شعره حريص أشد الحرص على الملاءمة بين اللفظ والموضوع ، مع جنوح واضح إلى اللفظ القريب إلى الفهم ، البعيد عن الإغراب والتعقيد .

٣ كما أن أسلوب البحترى يتميز بالموسيقى التي يرتفع رنينها في شعره ارتفاعا ربما لم يعرفه الشعر العربي إلا عند الأعشى (صناجة العرب) في العصر الجاهلي . فالموسيقى عنصر أساسي في شعره يعتمد عليه اعتمادا كبيرا ، وقد قامت موسيقاه على أساسين هما : تنسيق ألفاظه وتوزيعها موسيقيا ، ثم مطابقة هذه الألفاظ من الناحية الصوتية للمعاني التي تدل عليها .

فالبحترى يعنى أشد العناية بالتوزيع الموسيقي لألفاظه حتى لتتحول عنده إلى أدوات موسيقية تؤدي دورها في تناسق وانسجام كامل . كما يحرص على أن يكون الجرس الصوتي لألفاظه معبرا عن معانيه وموحيا بها ، فإذا أراد أن يعبر عن المعنى العنيف اختار له الألفاظ ذات الرنين الصوتي القوي ، وإذا أراد أن يعبر عن المعنى الرقيق اختار له الألفاظ ذات الرنين الصوتي الهادئ الناعم .

على هذا النحو كان البحترى يصوغ شعره معتمدا على البساطة في المعنى ، والموسيقى في اللفظ ، والمحافظة على أصالة الصياغة ، والحرص على التقاليد الفنية الموروثة عن الشعراء القدماء .

والواقع أن البحترى قد ارتفع بالصنعة الفنية في الشعر العربي التي تلقاها عن الشعراء الذين سبقوه إلى الذروة التي وصلت إليها هذه الصنعة في مفهومها العربي الأصيل . وبحق ما أطلقه القدماء على شعره وما وصفوه به من أنه " سلاسل الذهب " .

وصف بركة المتوكل للبحثري

عُرف الوصف منذ بداية الشعر العربي ، وقد أصبح في العصر العباسي فنا مستقلا بفعل الطبيعة الغنية بالجمال ، ومظاهر الحضارة الجديدة التي عُني بوصفها الشعراء ، والبحثري من الشعراء الذين برعوا في غرض الوصف وقصيدته في وصف بركة المتوكل نموذج يظهر عنايته بتفاصيل وجزئيات الموصوف الذي ينقله عبر شعره ليصبح رأيَ العين بالصور المختلفة التي يستعملها ، غير أن هذه القصيدة لم تكن في غرض الوصف وحده ، فقد استهل الشاعر قصيدته بالمقدمة الطللية التي ذكر فيها الشوق إلى الحبيب وكان مطلعها :

ميلوا إلى الدار من ليلي نُحِيَّهَا *** نعم ونسألها عن بعض أهلها

ثم كان وصف البركة بعد ذلك بدأً من قوله :

يا من رأى البركة الحسناء رؤيتها *** والآنسات إذا لاحت مغانيها

إلى أن انتقل بعد ذلك إلى مدح الخليفة المتوكل من قوله :

كأها ، حين لَحَّتْ في تدفِّقها *** يد الخليفة لما سال وادبها

يلصل بهذا المدح إلى نهاية القصيدة .

لكن الجزء الذي سنركز عليه بالدراسة هو الجزء الخاص بوصف البركة لما للوصف من حضور جمالي في شعر البحتري ، فقد اتخذ له طريقة خاصة في وصفه تقوم على اختيار التفاصيل الطريفة المحسوسة لتأليف لوحات متناسقة تروع بائتلافها ، وتؤثر بما فيها من حياة وحركة ، وبما يجعل فيها من موسيقى رائعة . يقول البحتري في وصف بركة المتوكل :

يا من رأى البركة الحسناء رؤيتها،

والآنسات، إذا لاحت مغانيها

بحسبها أنها، في فضل رببتها،

تعدُّ واحدةً والبحرُ ثانيها

ما بال دجلة كالغيري تُنفسها

في الحُسنِ طوراً وأطواراً تُباهيها

أما رأيت كاليء الإسلام يكأها

من أن تُعاب، وباني المجد يبينها

كَأَنَّ جَنَّ سُلَيْمَانَ الَّذِينَ وَلُوا
إِبْدَاعَهَا، فَأَذَقُوا فِي مَعَانِيهَا
فَلَوْ تَمَرُّ بِهَا بَلْقَيْسُ عَنْ عَرْضِ
قَالَتْ هِيَ الصَّرْحُ تَمَثِيلًا وَتَشْبِيهَا
تَنْحَطُّ فِيهَا وَفُودُ الْمَاءِ مُعْجَلَةً،
كَالْخَيْلِ خَارِجَةً مِنْ حَبْلِ مُجْرِيهَا
كَأَنَّما الْفِضَّةُ الْبَيْضَاءُ، سَائِلَةً،
مِنْ السَّبَائِكِ تَجْرِي فِي مَحَارِيبِهَا
إِذَا عَلَتْهَا الصَّبَا أَبَدَتْ لَهَا حُبْكَأً
مِثْلَ الْجَوَاشِينِ مَصْقُولًا حَوَاشِيهَا
فَرَوَتْهُ الشَّمْسُ أَحْيَانًا يُضَاكِحُهَا،
وَرَيِّقُ الْغَيْثِ أَحْيَانًا يُبَاكِيهَا
إِذَا التُّجُومُ تَرَاءَتْ فِي جَوَانِبِهَا
لَيْلًا حَسِبْتَ سَمَاءً رُكِبَتْ فِيهَا
لَا يَبْلُغُ السَّمَكُ الْمَحْصُورُ غَايَتَهَا
لِيُعَدَّ مَا بَيْنَ قَاصِيهَا وَدَانِيهَا
يَعْمَنَ فِيهَا بِأَوْسَاطٍ مُجَنِّحَةً
كَالطَّيْرِ تَنْقِضُ فِي جَوْ حَوَافِيهَا
لَهُنَّ صَحْنٌ رَحِيبٌ فِي أَسَافِلِهَا،
إِذَا انْحَطَطْنَ، وَبَهُوَ فِي أَعَالِيهَا
صُورٌ إِلَى صُورَةِ الدُّلْفَيْنِ، يُؤْنِسُهَا
مِنْهُ أَنْزَاءٌ بَعَيْنِيهِ يُوَارِيهَا

شرح الأبيات :

يا مَنْ رَأَى الْبِرْكََةَ الْحَسَنَاءَ رُؤْيَتْهَا،

وَالْأَنْسَاتِ، إِذَا لَاحَتْ مَعَانِيهَا

الآنسات : جمع آنسة ، وهي الجارية الطيبة النفس . مغانيها : منازلها . الحسناء : الجميلة . لاحت : ظهرت

يبدأ الشاعر وصفه للبركة بالنداء الذي وجهه إلى كل محظوظ شاهد هذه البركة الجميلة التي تشبه الفتاة الفاتنة في حسنها ، وهذه الصورة هي على سبيل الاستعارة المكنية فقد شبه البركة بالفتاة الفاتنة وحذف المشبه به وأتى بشيء من لوازمه (الحسناء) ، ويزيد من جمال هذه البركة وبهائها انتشار الآنسات في مقصورتهم حولها وكأنها أميرة حسناء يحيط بها وصيفات لها .

بِحْسَبِهَا أَتَّهَا، فِي فَضْلِ رُتْبَتِهَا،

تُعَدُّ وَاحِدَةً وَالْبَحْرُ ثَانِيهَا

بحسبها : يكفيها . واحدة : الأولى .

وللمزيد من الإغراء أو المبالغة في الوصف يؤكد أن هذه البركة يكفيها جمالا وبهاء في مرتبتها بين البحار والأنهار أنها متميزة منفردة بخصائص لا توجد في غيرها ، لذا تعد واحدة أي : الأولى ، ثم البحر تاليا لها في المرتبة الثانية ، فالبركة في جمالها وبهائها تفوق جمال البحر وروعته ، وهذا من قبيل المبالغة في المدح ، لأن البحر من صنع الله تعالى ، والبركة من صنع البشر ، و لا يمكن مهما بلغت قوة البشر وإبداعهم أن يصلوا إلى أن تكون البركة في مستوى البحر جمالا وبهاء .

مَا بَالُ دِجْلَةَ كَالْغَيْرَى تُنَافِسُهَا

فِي الْحُسْنِ طَوْرًا وَأَطْوَارًا تُبَاهِيهَا

الغيري : التي تغار من غيرها . تباهيها : تفاخرها بمحاسنها .

وبعد هذا الوصف لفضل هذه البركة في الجمال والحسن ، أظهر الشاعر تعجبه من نهر دجلة الذي أصبح مثل المرأة التي تغار وتنافس غيرها في الحسن والجمال ، وهذا التعجب يعكس مكانة البركة التي يراها الشاعر ، فهو عندما يعجب من هذه الغيرة التي رسمها لنهر دجلة ؛ يقدم بركة المتوكل على نهر دجلة ويجعل منها شيء منقطع النظر يفوق حسن كل ذي حسن ، حتى إن هذا الأمر يصبح مدعاة للتعجب لأن كل جميل عليه ألا يطمح ولا يياهي هذه البركة لأنه سينتهي إلى الإخفاق .

أَمَا رَأَتْ كَالِيَّ الْإِسْلَامَ يَكْلَأُهَا

مِنْ أَنْ تُعَابَ، وَبَابِي الْمَجْدِ يَبِينُهَا

الكالئ : الحارس ، وأراد بكالئ الإسلام الخليفة المتوكل .

لكن الشاعر لم يقف عند التعجب من فعل دجلة بل وجه سؤالاً استنكارياً يقول فيه : أما رأيت دجلة أن الذي يرعى ويقوم على هذه البركة هو خليفة الإسلام وأمير المؤمنين ، وكيف لها أن تعاب والخليفة المتوكل الذي بنى المجد هو الذي بناها ، فهي أقرب للكمال لذا سيكون الفوز في هذه المنافسة من نصيب البركة إذ لا عيب في بنائها لأن يد الخليفة تتعهدا .

كَأَنَّ جَنِّ سَلِيمَانَ الَّذِينَ وَلُوا

إِبْدَاعَهَا، فَأَدَقُّوا فِي مَعَانِيهَا

ونظراً لأن جمال البركة وصفاتها تعتبر من الأمور غير المألوفة لدى البشر على عادة العرب ، وعلى عادة العرب حيث كانوا ينسبون الأعمال الخارقة للجن ؛ خص جن سليمان عليه السلام بتولي إبداعها لدقة صنعها .

ثم لما ذكر سيدنا سليمان ذكر بلقيس التي بنى لها قصرًا مرادًا هو الصرح فقال :

فَلَوْ تَمُرُّ بِهَا بَلْقَيْسُ عَنْ عَرَضٍ

قَالَتْ هِيَ الصَّرْحُ تَمَثِيلًا وَتَشْبِيهَا

يقول : لو أن الملكة بلقيس مرت بها لتوهمت أنها صرحها لصفائها ولتمام إتقانها ، وبين تمثيلاً وتشبيهاً تكرر غرضه التأكيد على المشابهة بين الصرح والبركة .

تَنْحَطُّ فِيهَا وَفُودُ الْمَاءِ مُعْجَلَةً،

كَالْخَيْلِ خَارِجَةً مِنْ حَبْلِ مُجْرِيهَا

يقول : تنصب في هذه البركة جداول من الماء بسرعة وقوة لأن هذه الجداول منطلقة مثل الخيل في مضمار السباق ، حيث كانت الخيل تنطلق عند سحب الحبل الذي ينبئ ببدء السباق بسرعة شديدة وهذا يدل على نقاء هذه المياه وكثرتها .

كَأَنَّمَا الْفِضَّةُ الْبَيْضَاءُ، سَائِلَةً،

مِنَ السَّبَائِكِ تَجْرِي فِي مَجَارِيهَا

بعد أن وصف جريان هذه الوفود الكثيرة من الماء ، بدأ الشاعر يصف طبيعة هذا الماء ، فقال : كأن الذي يجري ليس ماء بل فضة سائلة ، ووجه الشبه الصفاء ، وأختار الفضة السائلة من السبائك لأنها أشد صفاء في هذه الحالة .

إِذَا عَلَتْهَا الصَّبَا أَبَدَتْ لَهَا حُبُّكَ

مِثْلَ الْجَوَاشِينِ مَصْقُولًا حَوَاشِيهَا

الصبا : الرياح الشرقية اللينة . حُبُّكَ : تكسر الماء وتعرجه مثل الطرائق التي تكون في الرمال عندما تمب عليها الرياح . الجواشن : الدروع .

هذه البركة من شدة نقائها وصفائها كانت رقيقة المياه بحيث إذا أصابتها الصبا أظهرت في سطح الماء تعرجات مثل الطرائق التي تتكون في الرمل عندما تمب عليها الرياح ، وقد خص الصبا لأنها ريح هينة لطيفة ليدلل على رقة مياه البركة ، وهذه الرقة تعكس صفاء الماء الذي أشبه الدروع التي صقلت حواشيتها فأصبحت لامعة اللون صافية من كل كدر .

فَرَوَتْهُ الشَّمْسُ أحياناً يُضَاحِكُهَا،

وَرَيِّقُ العَيْثِ أحياناً يُيَاكِهَا

والشمس ببهائها وإشراقها تعكس أشعتها على سطح البركة وكأنها تضحكها ، والغيث كأنه يياكيها بانسكاب قطرات الماء الصافية عليها .

والشاعر في هذا البيت :

- شبه الشمس في انعكاسها على الماء بالإنسان الذي يشارك بالضحك ، فكأن الأشعة المنعكسة ابتسامة مشرقة ، وهذا على سبيل الاستعارة المكنية .
- وشبه المطر الصافي بالإنسان الذي يشارك البركة البكاء ، على سبيل الاستعارة المكنية .
- كما استعار للغيث ريق الإنسان على سبيل الاستعارة المكنية أيضا .

إِذَا النُّجُومُ تَرَاءَتْ فِي جَوَانِبِهَا

لَيْلًا حَسِبْتَ سَمَاءً رُكِبَتْ فِيهَا

والبركة إذا نظرت إليها ليلاً ، ورأيت انعكاس النجوم فيها ، ظننت أنها سماء تحت سماء ركبت في سطح هذه البركة وذلك لسعة البركة وصفاء مائها . فلو كانت البركة صغيرة وماؤها كدر لما ظهرت النجوم في سطحها .

لَا يَبْلُغُ السَّمَكُ الْمَحْصُورُ غَايَتَهَا

لُبْعُدِ مَا بَيْنَ قَاصِيهَا وَدَانِيهَا

غايته : نهايتها . قاصيها : بعيدها . دانيها : قريبها .

يوصل البحري تأكيده على اتساع البركة بقوله : إن السمك المحصور فيها لا يستطيع بلوغ نهاية البركة وذلك للمسافات البعيدة التي تشغلها البركة ، وقد كان الطباق بين قاصيها ودانيها يعكس هذا الاتساع لبعدهما بينهما .

يُعْمَنَ فِيهَا بِأَوْسَاطٍ مُجْتَنِحَةٍ

كَالطَّيْرِ تَنْقِضُ فِي جَوْ خَوَافِيهَا

بعد أن ذكر الشاعر الأسماك بدأ في وصف طريقة عومها بواسطة زعانفها ، فشبه طريقة العوم عند السمك بطريقة الطيران عند الطير بواسطة الأجنحة ، وذكر الخوافي وهي جزء من الجناح وأراد الكل ، ووجه الشبه في الحالتين أن العوم والطيران يكون بالتحرك إلى الأمام عن طريق دفع الماء أو الهواء للخلف .

لَهُنَّ صَحْنٌ رَحِيبٌ فِي أَسَافِلِهَا،

إِذَا انْحَطَطْنَ، وَبَهُؤٌ فِي أَعَالِيهَا

ويقول : إن لهذه الأسماك حوض واسع في أسفل البركة ولهن بهو في أعالي البركة ، فشبه الأسماك بساكني القصر الضخم الذي له صحن وبهو ، وعادة ما يكون هؤلاء السكان من مترفي القوم ، وهذا التشبيه يدل على فخامة البركة التي كأنها قصر .

صُورٌ إِلَى صُورَةِ الدُّلْفَيْنِ، يُؤْنَسُهَا

مِنْهُ أَنْزَوَاءٌ بَعَيْنِيهِ يُوَازِيهَا

صُورٌ: مائلة . انزواء : انحراف . يوازيها : يجاريها .

يقول : بالقرب من البركة تمثال لحيوان الدلفين ، نصب كمجسم جمالي أمام البركة ، ومنظر الدلفين يجذب الأسماك ، فتتظر إليه حتى تميل أعناقهن من شدة الانبهار به ، وهو يؤنسها لأنها تحسب أنها في البحر عندما تراه وهو يرنو إليها بعينيه ، والشاعر في هذا البيت يبعث في الأسماك الإحساس ، وفي الدلفين الجأمة الحياة .

وهذه الأبيات من شعر البحترى بمثابة عقد منظوم من التشبيهات البديعة، فلا تكاد تجد بيتاً فيها إلاّ معتمداً على وصفٍ تشبيهي بديع، يسرُّ أصحاب الأذواق الأدبية .

النثر في العصر العباسي :

- خصائصه

- فنونه :

١- الخطابة

٢- الرسائل

٣- التوقيعات

- مدارس الكتابة في العصر العباسي الأول :

١- مدرسة الترسل .

٢- مدرسة الاستطراد .

النثر في العصر العباسي:

يُعدّ العصر العباسي الأول من أزهى العصور التي تطور فيها النثر تطوراً عظيماً وقد امتزجت الثقافات الأجنبية من فارسية و هندية و يونانية بالعقلية العربية. فكان عاملاً قوياً من عوامل تطور انثر. بالإضافة إلى نمو العلوم الإسلامية و رفدها لهذا النوع من الأدب بسمات خاصة.

خصائصه:

اتسم النثر في هذا العصر بهجر الألفاظ البدوية الجافة والألفاظ العامية المبتذلة، والعناية بفصاحة اللفظ وجزالته، والتأثق في اختياره لتكون هناك ملاءمة دقيقة بين الكلمة وأختها في الجرس الصوتي، والحرص على التعبير الموجز في مواضع والمطنب في مواضع أخرى حسبما يقتضيه الحال، هذا إلى وضوح الأسلوب، ودقة المعنى، وترتيب الأفكار.

فنونه:

كان من سمات نهضة النثر استمرار فنونه التي شهدها العصر الأموي في الازدهار، كالخطب والرسائل الديوانية والمناظرات والعهود والوصايا، وتطور بعضها كالتوقيعات والرسائل الإخوانية والأدبية، واستحداث بعضها الآخر كالقصة التي ظهرت مترجمة عند ابن المقفع ومؤلفة عند الجاحظ.

١/ الخطابة:

كان للخطابة في أوائل هذا العصر مكانة عالية، لاعتماد العباسيين عليها في توطيد الملك وترسيخ دعائمهم، وفي تحميس الجند، وفي استقبال الوفود. وكان الخلفاء العباسيون أنفسهم من أبرع الخطباء، مثل أبي العباس السفاح وأبي جعفر المنصور.

وقد امتازت الخطابة في تلك الفترة بجزالة الألفاظ، وعدم الالتزام بالسجع، وكثرة الاستشهاد بالقرآن الكريم والحديث الشريف، وغلبة الإيجاز ما لم تدعُ الضرورة إلى الإطناب. ولما استقر الأمر لبني العباس، ضعفت الخطابة لأنها كانت أداة في بيان حق العباسيين في الحكم. ثم لما ماتت الأحزاب السياسية بقضاء العباسيين عليها، أخذت الخطابة السياسية تضعف وتضمحل، وكذلك الخطابة المحفلية، وحلت الرسائل محلها، حيث قويت الكتابة، واقتصرت الخطابة على خطب الجمع والعيدين والزواج، على أن بعض الخلفاء أنفسهم ما برحوا يخطبون في الناس ويؤمّونهم إلى عهد الخليفة الراضي.

أخذ خلفاء الدولة العباسية يولون كتابة الرسائل عناية أكثر من سابقهم، ولهذا السبب كثر الكُتّاب، ونبغ كثير منهم في فن الترسل، وازداد التنافس بينهم. فقد كان العمل في ديوان الرسائل مصدر رزق لهم، وغدا التفوق في فن الترسل وسيلة للحصول على ولاية أحد الأقاليم، و وصل الكُتّاب إلى مكانة عالية في الدولة و تولى بعضهم منصب الوزارة، مثل: يحيى بن خالد البرمكي، وابنه جعفر، ومحمد بن عبد الملك الزيات، وأحمد بن يوسف الكاتب، وابن العميد، والصاحب بن عباد، وعبد العزيز بن يوسف، وضياء الدين بن الأثير وغيرهم.

وتسمى الرسائل التي تصدر عن ديوان الرسائل باسم الرسائل الديوانية نسبة إليه. وموضوعات هذه الرسائل متنوعة، فهي تشمل: الرسائل التي تصدر مشتملة على تولية العهد، وتولية القضاة، والولاية، وما يتصل بأمور الرعية. كما أنها تشمل أيضا الرسائل التي تكتب عن الخليفة أو الملك أو الوزير إلى من هو مثله من أجل التهنة أو البشارة أو المعاتبة أو التعزية وما أشبه ذلك. وفي مقابل الرسائل الديوانية، يوجد نوع آخر من الرسائل يعرف بالرسائل الإخوانية، وهي التي يكتبها الناس بعضهم إلى بعض في موضوعات إخوانية، كالتهنئة، والتعزية والبشارة والعتاب، وغير ذلك من أمور الحياة.

وهناك رسائل أخرى ليست ديوانية ولا إخوانية وإنما هي رسائل وعظية، ونعني بها تلك التي يكتبها بعض الأتقياء إلى الخلفاء والسلاطين والأمراء يحثونهم على الصلاح والتقوى والرأفة بالرعية، والاستعداد للموت، وما أشبه ذلك.

وبالإضافة إلى هذه الأنواع هناك نوع آخر من الرسائل خُصص للحديث عن بعض الموضوعات الأدبية أو العلمية أو الدينية أو التاريخية، وهذا النوع من الرسائل يدخل في باب التأليف ولا يدخل في باب الترسل، ومن أمثلته بعض رسائل أبي العلاء المعري، مثل رسالة الغفران ورسالة الصاهل والشاحج ورسالة الملائكة. وقد عُرف هذا اللون بالرسائل الأدبية، وكان الجاحظ أمير بيانه غير منازع. وتُعد رسالته الترييع والتدوير أشهر الرسائل الأدبية إذ فتحت الباب لمن جاء بعده من الكتاب للإبداع في هذا اللون من الترسل في المشرق والأندلس على السواء.

٣/التوقيعات:

هي ما يُوقَّع به الخليفة أو الوزير أو الوالي على ما يُرْفَع إليه من شكوى أو تظلم وقد عُرفت منذ أيام عمر بن الخطّاب، إذ نُسب إليه توقيع على كتاب سعد بن أبي وقاص - وقد استأذنه في بناء بيت وهو وال على العراق - فكتب: "أبْنِ مَا يُكِنُّكَ مِنَ الْهَوَاحِرِ وَأَذَى الْمَطْرِ." "

وقد كثرت التوقعات في الدولة العباسية، ونُسبت إلى كثير من الخلفاء كالسفاح والمنصور والمهدي والرشيد، والوزراء كجعفر بن يحيى البرمكي الذي يُعدُّ من أبرع مَنْ أُثرت عنه توقعات، وكثيراً ما يكون التوقيع آية من القرآن الكريم، أو حديثاً نبوياً، أو حكمة من الحكم، أو بيتاً من الشعر. ومما أثر من توقعات بليغة توقيع الفضل بن سهل على قصة مظلوم: " كفى بالله للمظلوم ناصراً " وتوقيع هارون الرشيد إلى عامله في خراسان: "داوِ جُرْحَكَ لا يَتَّسع . ووقَّع جعفر البرمكي في كتاب جاءه في شكوى بعض عماله: " لقد كَثُرَ شاكوك، وقل شاكروك، فإِماً اعتدلتَ وإِماً اعتزلتَ "

مدارس الكتابة في العصر العباسي الأول:

١/ مدرسة الترسيل:

الترسل هو أن يأتي الكاتب بكلامه مُرسلاً دون التقييد بالسجع و لا الإزدواج. و مِنْ أشهر المتيمين لهذه المدرسة (عبدالله بن المقفع) و هو من أصل فارسي، ولد سنة ١٠٦هـ وتوفي سنة ١٤٢هـ ولقب أبوه بالمقفع . لأن الحجاج الثقفي عاقبه على بعض مخالفاته بضربه على يديه حتى تقفعتا أئى تورمتا وأعوجتْ أصابعهما. و والده من أصل فاسي مجوسي. عاش عبد الله بن المقفع ٢٥ عاماً في ظل الدولة الأموية، و١٦ عاماً في ظل الدولة العباسية، وتلقى تعليمه بمدينة جور، حيث تتقف بالثقافة الفارسية، وعرف الكثير عن آداب الهند، ثم انتقل إلى مدينة البصرة فتشرب الثقافة العربية، إذ كانت البصرة مَجْمع رجال العلم والأدب، وكان "المربد" الشهير بها جامعة للأدباء والشعراء.

وقد اشتهر عبد الله بن المقفع في شبابه بسعة ثقافته الفارسية والهندية واليونانية، بالإضافة إلى فصاحة بيانه العربي، فاستخدمه "عمر بن هبيرة" كاتباً في دواوينه، وكذلك استخدمه "داود بن عمر بن هبيرة" وذلك في الدولة الأموية، أما في الدولة العباسية فقد عمل ابن المقفع كاتباً لـ "عيسى بن علي" ابن عم الخليفة المنصور، وأسلم ابن المقفع على يدي عيسى بن علي.

اشتهر ابن المقفع حتى قبل إسلامه بمتانة أخلاقه، فكان كريماً، عطوفاً، عاشقاً لحميد الصفات ومكارمها، شغوفاً بالجمال كما كان مؤمناً بقيمة الصداقة، وإغاثة الملهوف، ومن الحكايات المشهورة كاتب الدولة الأموية الشهير، اختبأ في بيت ابن المقفع بعد "التي تُروى عنه، أن "عبد الحميد بن يحيى قتل مروان بن محمد آخر خلفاء بني أمية، لكن رجال الدولة العباسية الناشئة توصلوا إليه، ودخلوا عليهما بيت ابن المقفع، وسألوهما: أيكما عبد الحميد بن يحيى؟ فقال كلاهما: "أنا" فقد قبل ابن المقفع أن يضحى بنفسه من أجل صاحبه، لكن العباسيين عرفوا عبد الحميد وأخذوه إلى السفاح.

مؤلفاته:

من كتبه الشهيرة كتاب "الأدب الكبير" وكتاب "الأدب الصغير" وهما يحويان الكثير من الحكيم المستمدة من الثقافات الإسلامية واليونانية والفارسية. و من أشهر كتب ابن المقفع على الإطلاق فهو كتاب "كليلة ودمنة"، وهو مجموعة من الحكايات تدور على ألسنة الحيوانات يحكيها الفيلسوف بيدبا للملك دبشليم، ويث من خلالها ابن المقفع آراءه السياسية في المنهج القويم للحكم، والمشهور أن ابن المقفع ترجم هذه الحكايات عن الفارسية، وأنها هندية الأصل.

من "رسالة الدرة اليتيمة" لعبد الله بن المقفع

"أبذل لصديقك دمك، ومالك، ولمعرفتك رفدك ومحضرك، وللعامّة بشرك وتحننك ولعدوك عدلك، واضنن بدينك وعرضك عن كل أحد. إن سمعت من صاحبك كلاماً أو رأياً يعجبك فلا تنتحلّه تزينا به عند الناس، واكتف من التزين بان تجتني الصواب إذا سمعته وتنسبه إلى صاحبه، واعلم أن انتحالك ذاك سخطة لصاحبك، وان فيه مع ذلك عارا، فان بلغ ذلك بك أن تشير برأى الرجل وتتكلم بكلامه وهو يسمع جمعت مع الظلم قلة الحياء، وهذا من سوء الأدب الفاشي في الناس، ومن تمام حسن الخلق والأدب أن تسخو نفسك لأخيك بما انتحل من كلامك ورأيك وتنسب اليه رأيه وكلامه وتزينه مع ذلك ما استطعت. واذا رأيت رجلا يحدث حديثا قد علمته أو يخبر خبرا قد سمعته فلا تشاركه فيه ولا تتعقبه عليه حرصا على أن يعلم الناس أنك قد علمته فان في ذلك خفة وشحا وسوء أدب وسخفا."

٢/ مدرسة الاستطراد:

الاستطراد هو: الانتقال من باب إلى باب، ومن خير إلى خير، ومن شعر إلى نثر، ومن أدب إلى فلسفة، ومن جد إلى هزل في تشعب ظاهر. وتعد كتابات الجاحظ أبرز الكتابات التي تتجلى فيها هذه الظاهرة حتى أنه قيل: "إن الموضوع عند الجاحظ ليس إلا وسيلة للاستطراد." ويعترف الجاحظ بأنه يستطرد في كتبه وساعده في ذلك ثقافته الواسعة وإمامه بجميع معارف عصره. وقد تكلم عن ذلك في كتابه الحيوان وعلل لفعله ذلك فقال:

"كلام في الاستطراد: ولا بأس بذكر ما يعرض، ما لم يكن من الأبواب الطوال، التي ليس فيها إلا المقاييس الجردّة، والكلامية المحضّة، فإن ذلك مما لا يخفُّ سماعه ولا تهشُّ النفوس لقراءته، وقد يحتمل

ذلك صاحبُ الصناعة، وملتمس الثواب والحسبة، إذا كان حليفاً فِكراً، أليفَ عِبرٍ، فمتى وجدنا من ذلك باباً يَحتملُ أن يوشَّحَ بالأشعارِ الظريفةِ البليغةِ، والأخبارِ الطريفةِ العجيبَةِ، تكلفنا ذلك، ورأيناهُ أجمعَ لما ينتفع به القارىء. ولذلك استجزنا أن نقولَ في باب النار ما قلنا. وأنا كاتبٌ لك بعد هذا؛ إذ كنتُ قد أملتُك بالتطويل، وحملتُك على أصعبِ المراكب، وأوعرِ الطُّرق، إذ قد ذكرنا فيه جملةً صالحةً من كلامِ المتكلمين، ولا أرى أن أزيد في سآمتك، وأحمِّلك استفراغ طاقتك، بأن أبتدئ القول في الإبل، والبقرة، والغنم، والأسد، والذئب، والحمير، والظباء، وأشباه ذلك، مما أنا كاتبُهُ لك. ولكني أبدأ بصغار الأبواب وقصارها، ومُحَقِّراتها، وملاحها، لئلا تخرج من الباب الأول، إلا وأنت نشيط للباب الثاني، وكذلك الثالث والرابع إلى آخر ما أنا كاتبه لك، إن شاء الله."